معركة الداعية.. مع من تكون؟

بقلم الكاتب الصحفي/
حاتم إبراهيم سلامة

معركة الداعية..

مع من تكون؟

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إلى الداعية العظيم الذي أقام دعوته على الحب، وشيد بناءه على الرفق، فجمع الناس، ووحد الصفوف، وألف بين القلوب، وقال معلنا لأصحابه: كونوا كالشجر يرميكم الناس بالحجر فترمونهم بأطيب الثمر!

مقدمة

يُحكى أن أحد الأطفال كان لديه سلحفاة يُطعمها ويلعب معها، وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة، جاء الطفل لسلحفاته العزيزة، فوجدها قد دخلت في غلافها الصلب طلباً للدفء، فحاول أن يخرجها لكنها أبت، فلم يكن منه إلا أن ضربها بالعصا فلم تأبه به، صرخ فيها فزادت تمنعًا واختفاءً، فدخل عليه أبوه وهو غاضب عليها وحانق منها، فقال له: ماذا بك يا بني؟

فحكى له مشكلته مع السلحفاة، فابتسم الأب وقال له: دعها وتعال معي، ثم أشعل الأب المدفأة وجلس بجوارها وأخذ يحدث ولده، ورويداً رويدًا وإذا بالسلحفاة تقترب منهم تطلب الدفء، فابتسم الأب لطفله وقال: يا بني إن الناس كالسلحفاة.! إن أردتهم أن ينزلوا عند رأيك فأدفئهم بعطفك، ولا تكرههم على فعل ما تريد بعصاك، وهذه إحدى أسرار الشخصيات الساحرة المؤثرة في الحياة... فهم يدفعون الناس إلى حبهم وتقديرهم ومن ثم طاعتهم، حينما يشملونهم بدفء قلوبهم ورفق مشاعرهم، يقول المثل الإنجليزي:(قد تستطيع أن تجبر الحصان أن يذهب للنهر، لكنك أبداً لن تستطيع أن تجبره أن يشرب منه!). كذلك البشر، لن تستطيع أن تسكن في قلوبهم، إلا بدفء مشاعرك، وصفاء قلبك، ونقاء روحك.

لقد تعلمت الصلاة في طفولتي، وكلما ذهبت إلى المسجد، جذبني ذلك الشيخ المتربص ولسعني بعصاته الملهبة، كان يطردني وأقراني بأسلوب خشن عنيف، وكلمات قاسية جارحة، يلاحقنا في كل مكان ولا يحنو علينا أولا يشفق لطفولتنا وضعفنا، لقد جعل حرب الأطفال رسالته، واشتد في إيذائنا وكأنه يجاهد في سبيل الله.! ولك أن تتعجب أنني ما زلت وأقراني، نُكنُّ لهذا الشيخ شيئًا من البغض في نفوسنا حتى اليوم، خصوصًا حينما نراه يمارس عادته القديمة في اضطهاد الأطفال، ومع أجيال جديدة.! ذلك الصراع الذي لن ينتهي إلا بموته.

ومن يومها أدركت أن العنف شيء قبيح ممقوت في النفوس، لا يُوّلد إلا مزيدًا من البغض والكراهية.

إن قطاعًا كبيرًا من الدعاة إلى الله تعالى تغيب عنهم أساليب الهداية وطرق الإصلاح، ويصرون على أن يجعلوا من المنصوح التائه عدوًا يناجزونه، وخصمًا يتحدَّوْنه، رأيت كثيرًا منهم في حياتنا وواقعنا الدعوي، لا يعرفون غير القسوة والشدة في معاملة الناس وإرشادهم للحق بخشونة مفرطة، يظنون معها أنهم صاروا حماة الدين والزائدون عن حياضه، ولو أبصروا حقيقتهم، لعلموا أنهم يُنفّرون من رحابه، ويحجِّمون انتشاره، وأنهم لا يزرعون بغلظتهم غير البغض والكراهية والفرقة في القلوب، بدلًا من الحب والود والتآلف، وإذا حدَّثت أحدهم عن صاحب معصية، ينبري لك قائلًا: لعنه الله، أخذاه الله، ولو كان حكيمًا راشدًا، لدعا له بالهداية والاستقامة، وأن يصلح الله حاله، ويُعينه على نفسه، وينجيه من شيطانه.!

ماذا يضيرك أيها الداعية العابس الجافي، لو ابتسمت في وجه العصاة بصفاء، لتكون هذه البسمة أول خطوة تشق بها طريقك نحو قلوبهم؟

إن القسوة المحمومة، والعبس المفرط في الوجوه، لا يزيد الدعوة إلا نفورًا منها، كما لا يزيد صاحب المنكر إلا إصرارًا على منكره، والله تعالى لم يُنصبك حكمًا على الناس تُفسّق من تشاء، وتلعن من تشاء، وتخرج من تشاء من ربقة الإسلام.

وقديمًا قالوا: (ليكن وجهك بسطًا، وكلمتك لينة، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم عطاءً)، ويبين لنا الحق تعالى ذلك المنهج القويم، الذي يجسد بوضوح صورة الداعية الذي يتحلى بالحكمة والفهم، ولا غاية له في حياته، ولا رغبة تملأ كيانه، إلا هداية الناس وفلاحهم.

قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة * وجادلهم بالتي هي أحسن* إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله * وهو أعلم بالمهتدين)[1] لقد خاطب الله تعالى بها الدعاة، حتى يسد أي باب للهوى وحظوظ النفس، التي قد تجنح بالداعية عن هذا النهج القويم، إن السلف العظيم، فتحوا قلوب الناس للإيمان، بالحب والإخلاص، والرفق واللين، وكان أسلوبهم في علاج العصاة

(1) النحل: 125

ينبوعًا من الرحمة والإشفاق، بل إن ما ضربوه من صور الرفق واللين، صارت مضرب الأمثال وأغنية الأجيال، فهل لنا من أثرهم نصيب؟!

يقول قائل:(إذا كان هناك من يعق والديه بالجفاء، فهناك أيضًا من يعق الإسلام بسوء فهمه وسوء تطبيقه) والدعوة اليوم أحوج ما تكون لدعاة فاقهين عالمين بالنفوس ونوازعها الحياتية، التي تؤهلهم لاستيعاب شهوات الناس ونزواتهم ومصالحهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، ففيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحل الذي يكره الاستقامة، وفيهم من ينكر المعروف، ويعرف المنكر.

وبعد.. فهذه صفحات تحمل سطورًا للدعاة، نؤكد فيها على ضرورة الرفق واللين وأثرهما البالغ في هداية الناس، فهي دعوة لكل غضوب أن يحلم، ولكل غليظ أن يرفق، وكل خشن أن يلين، لتصير دعوتنا دعوة حب، فنملك قلوب الناس، ونأسر عواطفهم، ساعتها نميل بهم ومعهم إلى طريق الاستقامة، ليكونوا قوة موجهة للحق، ودعمًا للمد الإسلامي وصحوته المباركة، راجيًا من الله أن ينفع بها إخواني الدعاة، ويفيد منها كل آمر بالمعروف، ناه عن المنكر.

ولله در القائل: (ليكن أمرك بالمعروف معروفًا، ونهيك عن المنكر غير منكر).

حاتم إبراهيم سلامة

الإسلام دين الرفق

لا تظلموا الإسلام!

ما أسوأ الظلم وما أقسى الجور، وما أتعس أن يبهت الحق وينصف الباطل، هذا تماماً ما تشعر به اليوم والدنيا كلها تتكالب على الإسلام، وتصفه بأنه دين الإرهاب، ويحاول المتآمرون الحاقدون ليل نهار أن يستغلوا كل حادثة يبرأ منها الإسلام، فيضخمونها ويعظمونها ويلصقونها به، حتى ترتعد منه الفرائص وتنقبض منه الصدور، هذا الدين العظيم الذي أمر بالرفق واللين والرحمة والحب، صار عبر مزاعم فاسدة وإفك مفترى، مصدر إزعاج وقلق للعالم أجمع، ولو أنهم عرفوا سماحته وعدله ورقيه، لحملوا الدنيا كلها عليه مقنعين محفزين.!

لكن أعداء الإسلام وأحلافهم في كل مكان، تجمعوا عليه فضللوا الناس وشوهوا الحقيقة، تلك الحقيقة التي نحاول اليوم أن نظهر بعض جوانبها، ونذكر بها الدعاة إلى الله، ليؤكدوا عليها في محافلهم ومنابرهم، حتى لا يُوجدون فرصة للمتربصين الحاقدين أن يطعنوا دينهم، مما يجدون من تصرفات المنتسبين إليه، والحاملين لاسمه ورسالته.

إن القسوة مذمومة في ديننا، ولا أعلم دينًا، كالإسلام قد أخذ منه الرفق حظًا عظيمًا، فنوَّه به القرآن، وحث عليه الرسول ﷺ في سنته، وأكد على معناه في كثير من التكاليف والأعمال.. كما أنه مراد الله، وديدن النبيين، وزاد الدعاة المخبتين.

قال تعالى:(يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر..)[1]

وقال تعالى: (لا يكلف الله نفسًا الا ما آتاها)[2]

وقال أيضًا: (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)[3]

وقال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى رفيق يُحب الرفق، ويُعطى عليه ما لا يُعطى على العنف)[4]

---

[1]- البقرة :185
[2]- الطلاق: 7
[3]- النساء: 28
[4]- رواه البخاري

وفي الأثر: (جربت اللين والسيف، فوجدت اللين أقطع)[1]

وقال ﷺ أيضاً: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه)[2]

لقد حث الإسلام على الرفق في كل مظاهر الحياة، الرفق مع النفس، والرفق مع الناس، والرفق مع النساء والصغار والكبار، والرفق مع الأعداء، والرفق حتى مع الحيوان!

حتى أعداء الدين والمخالفين، نالهم رفقه ﷺ حين دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم..! قالت عائشة: ففهمتها وقالت: وعليكم السام واللعنة: فقال رسول الله ﷺ: مهلًا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله.. فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ : (قد قلت: وعليكم)[3]

وكما قال رسول الله ﷺ: (عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش)[4]

وقد يكون الرفق واللين في جانب العدو الذي بينك وبينه سِلم ومواطنة أوجب وأولى! فلا يوجد أفضل من الرفق طريقًا لهدايته وموالاته! وكم أنبأتنا الأخبار بعدو صار صديقًا، وكارهٍ أصبح محبًا، ومبغضٍ أضحى ودودًا، ولم يكن وراء هذا التحول الرهيب، إلا جملة حانية، أو لفظة هادئة، أو بسمة مشرقة، أذابت جمود البغضاء والعداء، بل سما الإسلام في رفقه، حتى شمل الطير في الهواء، والحيوان على الأرض، ناهيك عن الإنسان.! لقد أوصى الإسلام بكل ذات كبد رطبة، فقال ﷺ: (في كل ذات كبد رطبة أجر)[5]

وانظر معي لهذا الحيوان الذي أقيمت له اليوم منظمات تحميه وتشفق عليه، لنجد الإسلام سبق غيره في رعايته وبيان حرمته، حتى جعل إيذاءه طريقًا للعذاب والنار! ففي الحديث: (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[6]

---

[1]- جدد حياتك – محمد الغزالي
[2]- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه
[3]- رواه البخاري
[4]- رواه البخاري
[5]- متفق عليه
[6]- رواه مسلم

بل أخبرنا أن الرفق بالحيوان كان سبباً لدخول الجنة! فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له) . قالوا : يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر)[1]

وقال ﷺ: (إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[2]

وعن سواد بن الربيع قال: أتيت النبي ﷺ فسألته، فأمر لي بذود ثم قال لي: "إذا رحت إلى بيتك فمرهم فليحسنوا أعمالهم، ومرهم فليقلموا أظفارهم لا يخدشوا بها ضروع مواشيهم إذا حلبوا"[3]

والذين يتهمون الإسلام اليوم بالشدة والقسوة، ما هم إلا حاقدون كائدون أو هم أغبياء لا يفقهون، إذ كيف يلصقون هذه التهمة النكراء بهذا الدين الذي يفوح رقة ورحمة؟ كيف يُتهم بهذا وهو الذي حث على العدل وحرم الظلم وأنصف الضعفاء وأنقذ المعذبين؟ بل كيف يلصقون به تهمة الإرهاب، وهو الذي دعا إلى الرفق واللين، وجاء رسوله رحمة للعالمين؟!إن الذين رفضوا حدوده ورموها بالشدة، ما هم إلا فاسدون أو ماجنون منحلون لا يقبلون أن يروا شهواتهم تُكبل، ونزواتهم تقمع، وأهواءهم تمور في القيود، فالسرقة لا يخافها إلا اللص، والرجم لا يخافه إلا الزاني، والجلد لا يخافه إلا عربيد سكير، والقصاص لا يخافه إلا لعين سفاك للدماء! وهؤلاء وحدهم على الساحة من يمقتون الشريعة، ويرهبون أحكامها ويعادون حملتها ودعاتها.

ولأعلام أمتنا جمل رصينة عرفوا بها الرفق وبينوا ضرورته في مسيرة المسلم، إن أقوالهم البينة المضيئة، لهي أشبه بوصايا وحكم ترسم الطريق العملية لهذه الأمة في ميدان الدعوة، إنهم يوصون بالرفق واللين، حتى تنشأ علاقة حميمة بين الداعية وبين من يدعوهم.

---

[1]- متفق عليه
[2]- رواه مسلم
[3]- رواه أحمد

فالإمام (أحمد ابن حنبل) يسأله السائل: "كيف ينبغي أن يأمر الآمر؟ فيقول له: يأمر بالرفق والخضوع، وإن أسمعوه ما يكره، لا يغضب فيكون يريد ينتصر لنفسه"[1]

وقال أحمد رحمه الله: "كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: "مهلا رحمكم الله، مهلا رحمكم الله".[2]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة لابد أن يكون مستصحبًا في هذه الأحوال"[3]

وقال سفيان الثوري رحمه الله: "لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل فيما يأمر، عدل فيما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى"[4]

وقال بعض السلف: "لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه"[5]

وقال (الشيزري) أثناء حديثه عن آداب المحتسب:

"وليكن (من) شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود، ولأن الإفراط في الزجر ربما أغرى بالمعصية، والتعنيف بالموعظة تمجه الأسماع"[6]

الدعاة في القمة

إن نصيحة الخلق وهدايتهم، من أشرف الوظائف، وأكرم المهمات، والقائمين عليها وبها، هم أنبل أهل الأرض، وكيف لا.. وقد كانت وظيفة الرسل والأنبياء؟ قال تعالى على لسان نوح عليه السلام

1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلال.
2- المصدر السابق
3- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية.
4- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلال.
5- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة
6- نِهَايَة الرُّتْبَة الظَّرِيفَة فِي طَلَب الحسبة الشَّرِيفَة.

:(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[1]وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)[2]وقال سبحانه على لسان صالح عليه السلام: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)[3]

بل إن أصحابها، هم أحب الخلق إلى الله تعالى، قال الحسن البصري: (قال بعض أصحاب النبي ﷺ ، والذي نفسي بيده، إن شئتم لأقسمن لكم بالله، إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبون عباد الله ويسعون في الأرض بالنصيحة). هكذا كان مقام الناصحين، أما النصيحة ذاتها، فهي أحب الأعمال إلى الله سبحانه، قال الله تعالى: "أحب ما تعبدني به عبدي النصح لي"[4]وسئل ابن المبارك رحمه الله: "أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله"[5]

وقال ابن علية في قول أبي بكر المزني: "ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ، ولكن بشيء وقر في قلبه، قال: كان في قلبه الحب لله سبحانه والنصيحة في خلقه"[6]كما يُبين لنا الحق تعالى أن الدعوة من أنواع الجهاد، وذلك في قوله تعالى:

(لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للهِّ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[7]أي لا حرج ولا سبيل على هؤلاء الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله، من أجل الجهاد مع النبي ﷺ ، ولا يجد هو ما يحملهم عليه من دابة حتى يخرجوا معه، فلا حرج عليهم في حالةٍ واحدة، وهي: أن ينصحوا لله ورسوله. "فكأن الله سبحانه يعفو عنهم، ويتجاوز عن تقصيرهم في الجهاد، بسبب ضعفهم وضيق ذات اليد، ولكنه تبارك وتعالى لا يعفيهم من النصح لله ولرسوله"[8]ويقول ابن رجب الحنبلي: "يعني أن من تخلف عن الجهاد لعذر فلا حرج عليه، بشرط أن يكون ناصحًا لله ورسوله في تخلفه"[9]

---

[1]- الأعراف :62
[2]- الأعراف :68
[3]- الأعراف :79
[4]- رواه أحمد
[5]- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا
[6]- فقه النصيحة لأحمد جاد ص14.
[7]- التوبة :91
[8]- المصدر السابق.
[9]- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي.

إنها فريضة دينية، وواجب شرعي أهمله الناس، وكم يحزن القلب حينما يُبصر أناسًا سلبيين، لا يقومون بالأمر والنهي، ويقول أحدهم مقالة حق أريد بها باطل: (دع الملك للمالك) لتنتشر الرذيلة وتفسد الأرض.

إن كثيرًا من الآثار تواترت على وجوب النصيحة فعن قيس عن (جرير بن عبد الله) قال: "بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم"[1]

كما جعلها الرسول ﷺ من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، حيث قال: "حق المؤمن على المؤمن ست، وإذا استنصحك فانصح له"[2]وعن أبي يزيد عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "وإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له"[3]وبين الحق تعالى مكانة الأمة المسلمة، والسبب المباشر في ريادتها على العالمين، وأفضليتها على كل الأمم. إنها النصيحة.. والقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى:(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)[4]

وهي الصورة التي تخلى عنها بنو إسرائيل، واستجلبوا بتركها لعنة الله (كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)[5]والداعية إلى الله لا يسعه من مهمته إلا أن يكون مُبلغًا، أما النتائج فليست له، وليس مطالبًا بأن يشغل بها همُّه، فالله تعالى هو الذي يقدرها، ويمنحها لمن يريد في الوقت الذي يريد.

قال تعالى: (..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[6]

أي إنك أيها المبلغ، كمن يضع البذرة في الأرض يرجو نماءها.. ولكنها على احتمال أمرين: إما أن تكون أرضًا خصبة تنبت العشب والكلأ، وإما أن تكون سبخة تذبل فيها النبتة ولا يقوم لها بنيان، وهداية القلوب للحق وإثنائها عن الباطل، لا يملكه غير الله رب هذه القلوب

---

[1]- متفق عليه
[2]- رواه مسلم
[3]- رواه أحمد
[4]- آل عمران :110
[5]- المائدة :79
[6]- العنكبوت:18

قال سبحانه: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[1]وليس معنى البلاغ أن تُحدِّث المدعوين ثم تنصرف عنهم وتنفض يديك، وتَظن أنك أديت ما عليك، وقمت بواجبك نحوهم ونحو الدعوة.. لا فالدعوة غير ذلك.. إنك تتابعهم بين الحين والحين، وتتعهدهم في كل مكان وزمان، وبكل الوسائل المشروعة، والإمكانات المتاحة، بل عليك أن تفعل معهم فعل نوح عليه السلام في بلاغه لقومه: قال تعالى: (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)[2]

أرأيت هذا الحرص والدأب الذي لم تكل معه نفسه؟!

لقد بذل ما في وسعه من صور البلاغ، ولم يكن يعرف معنى المِلال والفتور أو يصيبه اليأس أمام الإعراض والإصرار، بهذه الصورة، يتحرك الداعية، وبهذه الطريقة، يؤدي دوره المنوط به، بالبلاغ والإنذار والإعلام والإصرار..(إن الله تعالى يلتفت إلى رسوله ﷺ، يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)[3]

"فذكِّر بها وذاك، ذكِّرهم بالآخرة وما فيها، وذكِّرهم بالكون وما فيه، إنما أنت مذكِّر.. هذه وظيفتك على وجه التحديد، وهذا دورك في هذه الدعوة، ليس لك ولا عليك شيء وراءه، عليك أن تذكِّر، فإنك ميسر لهذا ومكلف به (لَّسْتَ عَلَيْهِم بمسيطر) فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئاً، حتى تقهرها وتقسِرها على الإيمان، فالقلوب بين أصابع الرحمن، لا يقدر عليها إنسان.. "[4]

ثم يقول تعالى: (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ)[5]إنها تشير برقة إلى وظيفة الرسول ﷺ، وتنكر أن يكون حفيظًا على الناس، أو متسلطًا عليهم، يراقبهم ويُلاحقهم ويحاصرهم، ويحصي عليهم أنفاسهم.

وفي ضوء هذا الفهم القرآني لطبيعة الدعوة وصفة الداعية، كانت القسوة مرفوضة في أسلوب الدعاة، ليكون الداعية شخصية جامعة جاذبة، يستطيع استيعاب أصحاب الظروف لصالح الإسلام، ولقد أنبأنا التاريخ وحكى عن إعصار التتار، الذين إذا ما هدؤوا حتى تناولتهم يد

---

[1]-القصص :56

[2]- نوح: 8-9

[3]- الغاشية: 21-22

[4]- في ظلال القرآن- سيد قطب.

[5]- ق: 45

الإسلام واستوعبهم بروحه، وأسرهم بقوته الذاتية، في الوقت الذي حاولت كل الأديان أن تستميلهم، لكن الإسلام وحده فعلها وكما قيل: بالقدوة لا بالقوة، باللين وليس بالرصاص والسكين.

وبهذا المعنى كان (بديع الزمان سعيد النورسي) يُعلّم طلابه ويرشدهم فيقول لهم: إخواني ، إن وظيفتنا هي خدمة الإيمان والقرآن الكريم بإخلاص تام، أما توفيقنا ونجاحنا في العمل وإقبال الناس إلينا ودفع المعارضين عنا ، فهو موكول إلى الله سبحانه، فنحن لا نتدخل في هذه الأمور ، وحتى لو غُلبنا فلا ينقصنا هذا شيئاً من قوتنا المعنوية ولا يقعدنا عن خدمتنا ، فعلينا بالثقة والاطمئنان والقناعة انطلاقاً من هذه النقطة ، وضرب لهم مثلاً بـ(خوارزم شاه) وهو أحد أبطال الإسلام الذي انتصر على جيش (جنكيز خان) انتصارات عديدة، فقد كان يتقدم جيشه إلى الحرب ، فخاطبه وزراءه ومقربوه: سيظهرك الله على عدوك وتنتصر عليهم!

فأجابهم: "إن ما علي هو الجهاد في سبيل الله اتباعاً لأمره سبحانه، ولاحق لي فيما لم أكلف به من شؤونه، فالنصر والهزيمة إنما هي من تقديره سبحانه" وأنا أقول مقتدياً بهذا البطل: إن وظيفتي هي خدمة الإيمان ، أما قبول الناس للإيمان والرضا به فهذا أمر موكول إلى الله، فأنا علي أن أؤدي ما علي من واجب ، ولا أتدخل فيما هو من شؤونه سبحانه"[1]

"إن هذه الدعوة العظيمة، لابد لها من دعاة أقوياء يتناسبون مع عظمها وشمولها، قادرين على أن يمدوا أشعة ضيائها في أنفس الناس وعقولهم وضمائرهم، بعد أن تشرق بها جوانحهم وتستضيء بها حياتهم، كما أن العناية بتكوين الداعية وإعداده المتكامل، أمر بالغ الأهمية، وإلا أصيبت كل مشروعات الدعوة بالخيبة والإخفاق في الداخل والخارج، لأن شرطها لم يتحقق، وهو الداعية المهيأ لحمل رسالة الإسلام"[2]

الدعوة رفق ورحمة

إنها رسالة ومهمة، لا يحسنها كل الناس، ولا يتحملها كل البشر.

[1]- ذكريات عن سعيد النورسي – أسيد إحسان قاسم

[2]- ثقافة الداعية. د/ يوسف القرضاوي بتصرف.

إنها مركب عسير، لا يمتطيه إلا صاحب غاية وتضحية، وهمةٍ وثبات، يدخل عالمها وفي مخيلته شخص الداعية الأعظم محمد ﷺ الذي أُهين وشُتم، وسُب في شخصه واتُّهم في عرضه، ورُمي بالحجارة، وأُدميت قدماه، نعم.. فالدعوة ليست ترفيهًا أو مكانة أو فضلًا يتعالى به الناس بعضهم على بعض، أيها السادة إنها تكاليف شاقة، وغُرم عسير، ومسؤولية باهظة، وأولى مغارمها تكون في ذاتك ونفسك، قبل أن تكون في البذل والإنفاق والجهد والتعب.

اضبط مشاعرك، ألجم نفسك، إياك إياك أن تستفزك الترهات، أو يغيظك عدوك، أو يستدرجك كاره لدعوتك، اجعل من الرفق واللين سلاحًا تواجه به الأحقاد والإحن، والغمزات واللمزات، كن هاشًّا باشًّا مبتسمًا في الملمات، راضيًا في الأزمات، خاشعًا ذليلًا ساعة النصر و الغلب.

واعلم علم اليقين، أن القلوب تميل لمن يلين لها ويرفق بها، والداعية الحق، هو ذلك الذي لا تفارق البسمة محياه، يُقبل بها على من حوله، فيملأ قلوبهم راحة وطمأنينة ليس لذاته فقط، وإنما لدعوته التي جعلت فيه هذا القبول.

لابد للدعوة من أسلوب طيب، وقول حسن، وطريقة لينة، وعرضٍ رقيق، وتجمل بالرفق واللين، معالم تنتصر بها الدعوات، وتأسر قلوب المدعوين ووجدانهم.

إن العنف مرفوض مذموم، والشدة لا يقبلها الإنسان، ولا يطيقها الناس أو يصبرون عليها، ناهيك عن أن يرتضوا من صاحبها نصحًا أو إرشادًا أو هداية.

ولقد "حثَّ القرآن الكريم على اعتماد الرفق خيارًا مبدئيًا في نهج الدعوة إلى الإسلام، واعتبره ركنًا وأساسًا مهمًا يقوم عليه صرح الهدى الرسالي للفكر والعقيدة الحقّة، التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين، ولقد تعددت لغة الخطاب القرآني لتمتلئ بها كلّ الآفاق التي يمتد إليها الرفق في معانيه الواسعة وغاياته البعيدة"[1]

إن الله تعالى يأمرنا أن نوجه حديثنا للناس بطريقة حسنة لا غِلظة فيها أو فجاجة..

[1]- الرفق في المنظور الإسلامي – أبو زلفى الخزاعي.

يقول تعالى: (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ)[1]

قال ابن كثير: "أي كلموهم طيبًا ولينوا لهم جانبًا"[2]

وقال (طلحة بن عمر): قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيَّ حِدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ. فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً)، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنفي؟"[3]

ولاحظ هنا كيف قدم الحق سبحانه حسن القول، على الصلاة والزكاة في الآية المباركة.؟!

وحول خطورة العبارة نجد أن من "غرائب النفس البشرية، أن استرضاءها واكتساب حبها وثقتها، قد يستغرق شهورًا وسنوات طويلة، أما تنفيرها أو استثارة كراهيتها وعداوتها، فقد لا يتطلب أحيانًا أكثر من عبارة واحدة، تكتبها أو تنطق بها في لحظة فيكون لها أسوأ الأثر، إن العبارة قد تتسبب أحيانًا في الجمع بين شخصين لم يكن مقدرًا لهما أن يجتمعا، والإنسان قد يتوقف أحيانًا عند كلمة أو عبارة تأتي عرضًا على لسان آخر، يلتقي به لأول مرة، فتكون سببًا في أن يقترب منه أو يبتعد عنه، والعبارة الواحدة قد تصاغ بطريقة معينة، فتقرب بين النفوس والقلوب، وقد تصاغ بطريقة أخرى فتشعل نارًا حامية بينهما"[4]

لقد كان شعار الدعوة على مدار تاريخها الأول مبنيًا على قوله تعالى:

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[5]

إن الآية الكريمة نزلت "بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره الله تعالى أن يدعو إلى دينه وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعِظ المسلمون إلى يوم القيامة."[6](وبالموعظة الحسنة تستحضر المشاعر في القلوب، وتستجلب وجوه الألفة، والرفق في

---

[1]- البقرة :83

[2]- تفسير ابن كثير.

[3]- تفسير القرطبي.

[4]- أرجوك لا تفهمني- عبد الوهاب مطاوع.

[5]- النحل:125

[6]- تفسير القرطبي.

الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بالمراد والغاية بعيدًا عن الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدال بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، أو رغبة جامحة في الظهور عليه، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكنه الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن رأيها الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلًا عن هيبتها واحترامها وكيانها)[1]

إن الرغبة في النجاح وتحقيق الغايات المرجوة للدعوة، لا يتم إلا حينما يتتبع السالك خطوات الداعية الأعظم محمد ﷺ، فيتحلى بأخلاقه، ويتسم بسماته، وينظر فعله في المواقف، وعلاجه للأمور، وتقديره للأحداث؛ ويكون فعلُه وسُنَّته هديًا وبرهانًا ونورًا يستضيئ به في طريق دعوته قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِّ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ..)[2]

(أي أنّ لينك لهم، مما يُوجب دخولهم في الدين، لأنك تأتيهم مع سماحة أخلاقك وكرم سجيتك بالحجج والبراهين)[3]

قال (الرازي) رحمه الله: (إن القوم لما انهزموا عن النبي ﷺ يوم أحد، ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول ﷺ بالتغليظ والتشديد!، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، زاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول ﷺ على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: (فبما رحمة من الله لنت لهم)

ويقول (رشيد رضا) رحمه الله: (لأنهما (الفظاظة والغلظة) من الأخلاق المنفِّرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبها، وإن كثرت فضائله، ورُجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله،

[1]- الظلال - سيد قطب.
[2]- آل عمران :159
[3]- مجمع البيان 2: 869.

ويتركونه وشأنه، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلّق حواليه، وإذاً لفاتتهم هدايتك، ولم تبلغ قلوبهم دعوتك)[1]

(كما تؤكد الآية الكريمة على خلق جليل من أخلاق الدعوة والاحتساب، وهو خلق الرحمة وعدم الغلظة، وأنه رافد عظيم وخلق كريم، ومن دوافع نجاح رسول الله ﷺ في دعوته، والتفاف صحابته حوله، وإصغائهم إلى أوامره، وتحري مرضاته، وعدم تقدمهم بين يديه، فهو بهذا الخلق وبغيره، صار عندهم أغلى من المال والولد، بل من النفس والذات!.)[2]

ويُعلق المفسر الأديب بمقطوعة من بيانه الرصين فيقول:

"فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيمًا بهم، لينا معهم، ولو كان فظًا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء؛ ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه؛ ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء، وهكذا كان قلب رسول الله عليه ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم. وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة" [3]

وفي آية أخرى، يأمر الله سبحانه رسوله ﷺ باللين للمؤمنين في قوله:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)[4](أي ألن لهم جانبك) [5]

فاللين للمشركين يفتح قلوبهم للإسلام، واللين للمؤمنين يزيد من حبهم للإسلام.

قال الشاعر:

---

[1]- تفسير المنار.
[2]- موقع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمملكة العربية السعودية.
[3]- الظلال ج1صـ.
[4]- الحجر: 88
[5]- تفسير ابن كثير.

ولن في الكلام لكل الأنام ** فمستحسن من ذوي الجاه لين

ثم يصف الله تعالى رسوله ﷺ بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين، ليكون النموذج المحتذى للدعاة:

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[1]

لابد من الصبر

نعم لابد من الصبر، لا يحقق الداعية نجاحًا إلا بالصبر، ولا تنتصر الدعوات إلا إذا تحمل رجالها ما يلقون في طريقها من عقبات وجهالات وسخافات، وسخريات، واستبطاء للتلبية، والصبر في الدعوة على ضربين: صبر على تحمل البلاء والأذى الذي يعترض الداعية في دعوته، والثاني هو الصبر على المدعوين الذي لا يستبينون الطريق القويم، ويحتاجون لمن يُنير لهم ما أظلم منه عليهم.

إن الداعية قد يُعرّضُ به، وتلصق به التهم، ويرمى بالسَفه والجنون، أو يُساء إليه، فيطعن في عِرضِه، وكل هذه البلايا، إذا لم يقابلها صبرٌ عظيم، فلن يصمد الداعية أمام شهوة الانتقام التي تسيطر على نفسه، وتتوثب ناهضة لثأرها، لتكون الدعوة في النهاية هي الخاسر والمغلوب.

إن الصبر سلاح الدعوة، وحينما يخاطب الله تعالى رسوله الكريم، فإنه لا يأمره بالصبر فحسب! وإنما بالصبر الجميل، قال تعالى: (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)[2] أي أن الداعية لابد له من الصبر الجميل، وهو مرتبة أعلى من الصبر المجرد، وما كانت حياة الأنبياء قبله ﷺ إلا سلسلة من الابتلاء والمحن، صبروا عليها صبرًا جميلًا.

يقول ابن القيم في مدارج السالكين: "الصبر الجميل هو الذي لا ضجر فيه ولا ملل، وذلك أن الإنسان قد يصبر، لكن الصبر الجميل درجة أعلى، وهي التي لا ضجر فيها ولا ملل ولا سخط".

وقد يكون المسلم صابرًا، لكن الداعية لابد له من الصبر الجميل، الذي يتناسب وعظم الدعوة إلى الله تعالى، التي يمتلئ طريقها بالمشاق والمصاعب، وليس من زاد يُعين عليها أبلغ من الصبر الجميل، ولقد كانت وصية لقمان لابنه ما حكاه الله تعالى على لسانه:

---

[1]- التوبة: 128

[2]- المعارج :5

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1]

لقد أوصاه بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي إشارة بأنهما لا يتحققان إلا به، وأنه من لوازمهما.

يقول ابن تيمية رحمه الله: (لابد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، صبورًا على الأذى، فإن لم يحلم ويصبر، كان يفسد أكثر مما يصلح).

ألا إن طريق الدعوة مليئة بالأشواك والمحن، والجهد والعناء الذي لا راحة فيه، وفي يوم من الأيام، ضاق الصحابة ذرعًا فتفجروا بالشكوى لنبيهم ﷺ، فماذا كان رده ﷺ عليهم؟

قال خباب بن الأرت: (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، أو يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[2]

وجاء في ترجمة الصحابي الجليل (عمير بن حبيب بن حماسة)، وصيته لبنيه يحثهم على الصبر في الدعوة: (إذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، فليوطن نفسه على الصبر وعلى الأذى، وليوقن بالثواب من الله فإنه يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى)[3]

ولقد كان أحد الأئمة العظام، دائم التحسب لما يخبئه الزمن من بلاء ومحن، فكان يُهيئ أتباعه من أول الطريق لمواجهة كل الفروض، كان يُسر لهم في أحاديثه الخاصة والعامة بقوله: (إن الدنيا ستتألب عليكم، وستحاربكم في أرزاقكم، وإن السجون ستفتح أبوابها لإيوائكم واستضافتكم). وخطبهم يومًا فقال:(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)[4]

---

[1]- لقمان :17

[2]- رواه البخاري

[3]- الزهد لأحمد 186.

[4]- آل عمران :186

و"هذه سنة الله تبارك وتعالى في أصحاب الدعوات والمؤمنين بها والعاملين لها، أن يبتليهم في أنفسهم وأرزاقهم وأولادهم، وبالإيذاء والكيد والافتراء والكذب والعداء من منافسيهم وخصومهم، والذين لا يعرفون حقيقة دعوتهم)[1]

إنها إذًا ضريبة الجنة، قال تعالى:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ)[2]

قال الخازن: (أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان ولم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والابتلاء والاختبار)[3]

فلنصبر على الدعوة لدين الله تعالى كما صبر الأولون، وفي حياة نبينا العظيم ﷺ دروسًا هائلة في الصبر والاحتساب في مقام الدعوة، فها هو يأتيه ملك الجبال حينما يشتد به الأذى فيقول: (يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فيقول النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)[4]

ويقول ﷺ: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)[5]

ولو نظرنا إلى قوله تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)[6] لوجدنا أن هناك حكمة في ذكر مقدار اليوم: (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)، فإن ذلك يُعطي شعورًا بأن عمر الإنسان كله محدود، فلو قضى الإنسان خمسين سنة في الدعوة إلى الله، فهي لا شيء من خمسين ألف سنة؛ فليس هناك داع للتضجر؛ فاصبر صبرًا جميلًا.

---

[1]- مشكلات الدعوة والداعية - فتحي يكن.
[2]- البقرة: 214
[3]- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن.
[4]- رواه الشيخان
[5]- رواه أحمد والترمذيّ وابن ماجة وإسناده حسن
[6]- المعارج: 4-5

ويأتي نداء الله تعالى للمؤمنين، يحثهم على الصبر والثبات قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]

ويهيم (سيد) رحمه الله في المعنى بعمق ووضوح فيقول: "الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء، الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة، من الألم والغيظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحيانًا في الخير، وقلة الرجاء أحيانًا في الفطرة البشرية، والملل والسأم واليأس أحيانًا والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع.."[2]

على الداعية أن يدرك أن الحق لا سلطان له ولا بقاء إلا بالصبر، فإن النصر مع الصبر، ومن يدمن قرع باب يلج، فالطريق شائكة موحشة، قد يقل فيها الناصر والمعين والمواسي والرحيم، وحينها، لابد أن نسمع لعلي بن أبي طالب ﷺ في قوله:(لا تستوحشوا طريق الحق لقلة رواده)[3]

ليس من السهولة أن تُزيح زور الجاهلية بين عشية وضحاها، فتُطهر العقول من رجسها، والطبائع من رذائلها، كما أن زادًا من الصبر لا يُجدي، وإنما لابد من رصيد هائل لا ينفذ، حتى تنتصر إرادة المصلحين.

---

[1]- آل عمران:200

[2]- الظلال - سيد قطب.

[3]- نهج البلاغة

أما النوع الثاني من الصبر، وهو الصبر على المدعوين، فإن رحلة الهداية طويلة شاقة لابد فيها من الثبات والصبر حتى تزول الشبهات والعوائق من طريق المدعو، فينساب الحق إلى قلبه في سهولة ويسر.

وكان أحد الأئمة له أسلوب فريد في الدعوة إلى الله تعالى، فما كان رحمه الله يجابه أحدًا بِكُره، حتى المنحرفين ما كان يقسو عليهم في المجابهة، استضافه مرة أحد الأثرياء، وقام هذا الإمام بدعوته إلى طريقته والانضمام لمدرسته وجماعته، فلما جلس إليه واستمع منه، قال: إن ما تحدثني به شيء جميل، وإني لرجل خير، أحسن إلى الفقير وأساعد المحتاج، وأصلي وأصوم، ولكن في عيب كبير أظن أنني لا أستطيع الإقلاع عنه.

فقال له الإمام: وما هو هذا العيب الذي لا تستطيع الإقلاع عنه؟ قال الرجل الثري: إني أشرب الخمر أحيانًا، وهذا ما يمنعني من الانضمام لجماعتك، والدعوة لمبادئها، وهنا لا تستطيع أن تتصور ماذا كان جواب هذا الإمام النابه! لقد قال له: ونحن نقبلك بحالتك! فذُهل الرجل من ذلك.!

وليس معنى هذا أن الإمام يُقر الخمر ويستحل شربه، ولكنه كان يعرف أنه إذا انضم للجماعة وخالط أفرادها، رأى نُكر ما يفعل، فالبيئة الصالحة، والكلمة الحسنة، والنصيحة الهادئة، كفيلة بأن يقلع الرجل عن ذلك، وهذا ما حدث.! إنه أسلوب ممزوج بالتربية، ولم يكن يعمد إلى الموعظة، ثم يترك من وجهت إليه، ليذهب أثرها بعد حين كما يفعل بعض الدعاة، ولكنه كان يتعهدها وصاحبها بالرعاية والمتابعة، حتى يأخذ بيديه، فيبرأ من دائه وينجو من وحل المعصية، ويسير في قافلة الإيمان.!

وفي برنامج ندوة للرأي التي كان يذيعها الإعلامي الراحل (حلمي البُلك) تحديدًا عام 1984م، تحدث الشيخ (عطية صقر) رحمة الله عليه وقال: كنت أعمل بالصعيد والتقيت مرة بداعية إسلامي، كان يزور شعبة في تلك المنطقة، فسألته عن أسلوبه في نشر دعوته فقال لي: نحن كمن يزرع قطنًا، والقطن يستمر في الأرض عدة شهور تبلغ الستة أو السبعة، ننقيه من الحشائش الضارة به، ونرعاه حتى يستوي على سوقه ويستغلظ، وتطيب ثمرته فنجنيها طيبة نافعة، هكذا نحن ندعو على مهل،

ونربي على مهل، وننتظر الثمرة على مهل، فلا نقطفها قبل أوانها، ومن أراد أن يتعجل الثمرة قبل نضجها فليس من أسلوبنا ما يفعل.

إن الداعية تماماً كالوالد الذي يربي أبناءه، فهل يربيهم بين يوم وليلة؟

إن الطريق طويلة حتى يتخلص المرء من كوارث نفسه ورذائلها، ولهذا سمّى الصوفية أشياخهم بالمربين، وكان المريد يسير في ركاب شيخه وطريقته حتى يشتد في صلبه عود التقوى ويبلغ تمامه.

دعوة تنتصر بالحب

يقول الداعية الأديب[1]:"إن أصحاب القلوب الكبيرة من الدعاة يسعون الخطائين دائمًا، إن أحدهم قد يرى العاصي متألمًا، فيتألم أكثر منه، وقد يرى من هو سعيد بطاعته، فيكون أسعد منه، وهكذا تتوارى حظوظ النفس ليكون الولاء للحق أولًا وأخيرًا، ألا ما أحوجنا إلى القلب الكبير، الذي يسع الدنيا، يستقبل به الصغير، ولدا والمساوي أخًا، والأكبر والدًا، وبهذه الرحابة يكسب الداعية حب القلوب، فإذا لم ينل حظه من الحب، فسوف يأخذ نصيبه من الاحترام، وعلى الدوام".

في غمرة هذه المعاني الطيبة، رأيت داعيةً شابًا، يذكر أخًا له من غير جماعته بالسوء، ويتهمه في مروءته وسلوكه، وقد يَصدر الاتهام من أي أحد، إلا أن أشد ما لفتني في أسلوب الشاب، شماتته المتوهجة التي يرصع بها جبينه، ويتهلل بها وجهه، إنه سعيد لزلة أخيه، الذي يشاركه الكفاح في الدعوة، وتغمره النشوة أن عد عليه عيبًا ونقيصة، فقلت عجبًا أي داعية هذا؟! فلو كان صادقًا واعيًا، لذهب لأخيه ينصحه ويرشده، ويبذل كل ما يُعينه على تفادي الأَخطاء والأوزار، التي يتشبث بها مرضى القلوب وأهل الزيغ، ليشوهوا بها في النهاية طريق الدعوة. وعلى جانب آخر، نرى دعاة يفتعلون المعارك، داخل المسجد وخارجه، من أجل حكم فقهي مختلف فيه، وربما تشتد الخصومة بين الطرفين، حتى تصل لمعركة طاحنة تلتحم فيها الأيدي، لتكون طعنة في ظهر الدعوة! فالغضبة هنا ليست لله، وإنما للنفس المريضة، التي تتأبى على الإخلاص، وترمي بالإحن والأحقاد.

[1]- شيخنا العلامة الدكتور محمود عمارة رحمه الله رحمة واسعة

إن الرحمة والرأفة وحب الخير للناس هي الدعائم الأولى التي بنى عليها محمد ﷺ دولته ومنهجه، وسلوكه كداعية، فلماذا لا ندعو لديننا بهذه المعالم التي كان عليها البنيان الأول، والتي يفتقدها اليوم قطاع كبير من الدعاة، شغلوا حياة الناس بفرعيات وكماليات، وتركوا القلوب تموت غلظةً وتحجرًا..! قد تدرك أيها الداعية قيمة الحب، لو تأملت معي قولة الرائع جلال الدين الرومي: "إن الحب.. ليحوِّل المر حلوًا، والتراب تبرًا، والكدر صفاءً، والألم شفقةً والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة"

إنه سر عظيم أنت أحوج ما تكون إليه في دعوتك، ثم فوق هذا، تذكر دائمًا أن الأفراد الذين نصر الله بهم دينه وشريعته، وأيد بهم منهجه، شع الحب من مآقيهم، ورشح من سويدائهم، وانسكب على أكفهم، فانطلقت ألسنتهم متمثلة لهذا المنهج، الذي أسَروا به قلوب الناس، حتى قال فيهم أهل الكتاب لما رأوا أخلاقهم: "ما كان أصحاب عيسى بأفضل من هؤلاء".

وقد سمعت أحد مشايخنا يصف داعية شهيرًا من الدعاة الربانيين بقوله: (كان دافئ الصدر، طويل الذراعين، لا يفلت منه أحد، ويستريح على صدره كل أحد، يستوعب الجميع، ويحتوي كل من حوله، أعداءه قبل أحبابه.)

لقد ترك هذا الداعية الرباني أثرًا طيبًا في نفس كل من عرفه وجالسه، لما يتمتع به من صفاء النفس، ونقاء السريرة، وطيب الكلام، وحلو الحديث، وجمال العرض، وحسن الحوار والمجادلة، ولا يخرج من مجلسه إنسان، إلا وهو يحمل في نفسه الإكبار والتقدير والحب لهذا الداعية الفذ، وها هو يروي لنا عن نفسه بعض أخلاقه وسماته فيقول:

"ما عرفت القسوة يومًا سبيلها إلى خلقي، ولا الحرص في الانتصار على أحد، ولذلك كنت لا أرى لي خصمًا، اللهم إلا إذا كان ذلك في الدفاع عن حق أو دعوة إلى العمل بكتاب الله تعالى، على أن الخصومة من جانبهم لا من جانبي أنا.. لقد أخذت على نفسي عهدًا بألا أسيء إلى إنسان بكلمة نابية، حتى لو كنت معارضًا له في سياسته وحتى لو آذاني.. ولذلك لم يحصل بيني وبين إنسان صدام لمسألة شخصية"[1]

[1]- أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة للمستشار- عبدالله العقيل.

إن مهمة الداعية الأساسية تطهير نفسه من سُعار الغيظ تجاه مجادليه، وشهوة الانتقام من مخالفيه، فيكون قلبه وعاءً للحب، ولسانه باعثًا للتقدير، ولو لم يكن للداعية من حظ غير هذا الحب، لكفى به زادًا إلى غايته، إن الشفقة على العاصي خير وأجدى من مشاعر الكبرياء التي تبعده عنك، وتوسع الهوة بينك وبينه، وقد نوه القرآن بها، حينما خاطب الحق تعالى نبيه الكريم فقال:(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)[1]

"شبهه – سبحانه – وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، بِرجُلٍ فارقته أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجدًا عليهم، وتلهفًا على فراقهم"[2]

"فالدعاة إلى الله لا يغتاظون ولا يكرهون المنابذين لهم، بل يحل في نفوسهم مكان الحنق والغضب لأنفسهم، شفقة وحزنًا على المخاطَبين بالدعوة؛ لأن شفقتهم على الناس أسبق من شفقتهم على أنفسهم، إن الكلمة الطيبة النظيفة من لوث الحقد والغيظ أقطع من السيف في تطويع نفس المدعو وإذعانه للدعوة"[3]تأمل أخلاق معاوية وكيف كان يكسب ود مخالفيه بالرفق والتودد؟

"يروى: أنه كان لعبد الله بن الزبير ﷺ أرضٌ بالمدينة، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضًا عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبدالله بن الزبير، فكتب عبدالله بن الزبير كتابًا إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد؛ يا معاوية، إنّ عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانهم عن ذلك، وإلاّ كان لي ولك شأن، والسلام. فلما قرأ معاوية الرسالة، دفعها إلى ولده يزيد، فلما قرأها قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه.

فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام.

---

[1]- الكهف: 6

[2]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن -محمد الأمين الشنقيطي

[3]- من كلام للدكتور. محمد سعاد جلال.

فلما وصلت الرسالة إلى عبدا لله بن الزبير رضي الله عنهما كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحلّه من قريش هذا المحل، والسلام، فلما قرأ معاوية رسالة عبدا لله بن الزبير، رمى بها إلى ابنه يزيد، فلما قرأها تهلّل وجهه وأسفر، فقال له أبوه: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء، فداوه بمثل هذا الدواء."[1]

وهنا تمكن معاوية ﷺ من استمالة قلب (عبدا لله بن الزبير) بكلمات رقيقة ومؤثرة، ولم يغضب عليه ويزجره ويعنفه بسبب أسلوبه القاسي في رسالته، إنما تعامل مع الموضوع برقة واقتدار، وكسب ود ابن الزبير وجعله يرضى كل الرضا عنه.!

كم مرة نسمع عن شكاوى موظفين يقسو عليهم رؤساؤهم دون وجه حق، وبعدها لا الرؤساء يجعلونهم يحققون ما يريدون، ولا الموظفون يؤدون ما عليهم! بل إن (القسوة) في غير موضعها توجد جداراً من الكراهية، يكون من شأنه خلق مناخ غير جيد للعمل!

ولهذا فان بعض الشركات اليابانية الناجحة اتخذت شعار (الإدارة بالحب) وليس (الإدارة بالقسوة) والضغط أو الكراهية أو الإكراه! إن خلق علاقة حب بين الإنسان وبين عمله والقائمين على عمله، تجعله يُنتج ويُبدع ويُعطي.

وقيل: (كم مرة أزاح شهد الكلمة الطيبة غيوم الأسى من قلوب الآخرين، وكم مرة كان (لعذب الخطاب) فعل السحر في وأد العذاب من بعض النفوس! وكم كان لعاجل القسوة مردود عكسي في صلاح الناس وانقيادهم، وهنا يصدق قول الحكيم العربي: (جربت اللّين والسيف، فوجدت اللّين أقطع)!

بسمة حانية تأسر القلوب!

أرى دعاة يقاتلون على بعض السنن، ويعادون الدنيا كلها على تطبيقها! وينكرون على الناس أن قصروا في بعضها، حتى ذهب بعضهم ليفسق من أطال ثيابه أو حلق لحيته! وإذا كنا نتصيد للناس

[1]- المستطرف في كل فن مستظرف - الأبشيهي

قصورهم في التحلي بسمات الرسول ﷺ وسنته التي يثاب من فعلها ولا يأثم من تركها، فلا أعرف كيف نُقابلهم إن هم فرطوا في فرض من الفرائض، أو قصروا في واجب من الواجبات؟!

لاشك أن معركة من التكفير ستشتعل مراجلها، بعيداً عن دعوة صادقة متأنية بصيرة، وأولى بنا أن ننظر في أنفسنا كدعاة، لنبصر جوانب تقصيرنا في الأخذ بالسنة النبوية، وأولها أننا لا نُحاكيه ﷺ في بسماته وضحكاته وبشاشته في الوجوه إذا ما نصح أو أرشد، أليست هذه سنة أكيدة، ومعلم من سماته وصفاته ﷺ؟ ، أم أننا لا نأخذ منه إلا ما يحلو لنا ويوافق أهواءنا، ونعدي الانتصار له بما يقيم بيننا الحواجز والبغضاء؟!

يروي عبد الله بن الحارث بن حزم رضي الله عنه قال:

"ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ".[1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيت رسول الله ضاحكًا حتى أرى منه لهواته – وهي اللحمة الموجودة في أعلى الحنجرة – وإنما كان التبسم"[2]

وقال ﷺ :"لا تحقِّرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق" [3]

وقال: "تبسمك في وجه أخيك صدقة"[4]

وقال ﷺ : "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق".

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "ولا ينبغي للعالم أن يُصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وَلَيْسَ يَعْلَمُ الْمِسْكِينُ أَنَّ الْوَرَعَ لَيْسَ فِي الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطئ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ التقوى هاهنا وأشار إلى صدره، ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ:

[1]- رواه أحمد والترمذي
[2]- متفق عليه
[3]- رواه مسلم
[4]- رواه الترمذي

"يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله"[1]

وفي رحاب هذا السمت النبوي، يؤسفني أن أرى دعاة لا يعرفون كيف يبتسمون؟! بل أعجب من داعية شهير، دائم العبوس، متجهم الوجه، تُشعرك نظراته، أن هناك كارثة ومصيبة وقعت، وعلى خديه أرفة لا تعرف سببها، وكلما نظرتُ إليه أرى هولًا وشدة تدفعني لتمثل صورة الداعية الأعظم ﷺ التي تتبرأ من هذا الرعب وهذا الإرهاب.

إن الذين يخاصمون البسمة لا ينجحون، ولابد لهم أن يجاهدوا أنفسهم ويروضوا عضلات وجوههم حتى تتعود البسمة، فينعمون بخيرها وثوابها بل.. بفتوحها.

يقول ابن عيينة:

"والبشاشة مصيدة المودة، والبر شيء هين، وجه طليق وكلام لين".

إن الابتسامة تعكس صفاء النفس، ونقاء الصدر، وهدوء الخواطر والوجدان، فلا يمكن أبدًا أن تجد نفسًا مشتعلة بالحقد والغل والكره والبغضاء، وصاحبها يبتسم في وجوه الناس.!

والمثل الإنجليزي يقول: "كيف يمكنني أن أكره إنسانًا يبتسم في وجهي؟!".

وقيل أيضًا: "ابتسامتك هي طريقك للنجاح".

وإذا كانت الابتسامة تصنع النجاح وتهدي لطريقه، فإن التجهم يصنع الفشل الكبير، وهذا ما أدركه عمال أحد المحلات التجارية في باريس، حينما طلبوا رفع أجورهم، فرفض صاحب العمل وأصر على ذلك، فما كان منهم إلا أن اتفقوا على أن لا يبتسموا للزبائن، كرد على صاحب المحل، أدى ذلك إلى انخفاض دخل المحل في الأسبوع الأول حوالي (60٪) عن متوسط دخله في الأسابيع السابقة.!

وفي نفس المعنى يقول المَثَلُ الصِّيني: "إنَّ الذي لا يُحسِن الابتسامة، لا يَنبغي له أن يَفْتح متجرًا".

وهذا السر قد فطن إليه الغرب في معاملاتهم مع بعضهم البعض، وقد لمحه وتفرسه فيهم الكاتب الأديب الكبير (محمد حسين هيكل) وأشار إليه في مذكراته، حينما كان يدرس في فرنسا فقال:

[1]- إحياء علوم الدين للغزالي ربع المهلكات- بتصرف.

"هذا اللطف في المعاملة هو الأمر السائد هنا فصديقك والتاجر الذي يبيعك سلعة، وخادم غرفتك، وكل من تقابل، دائم الابتسام، حتى لكأن هذا الخُلُق أصبح طبيعيًا فيهم، يحيونك بابتسام، ويقضون حاجتك بابتسام، ويشكرونك بابتسام.. "[1]

أما (شواب) وهو مدير أحد مصانع الصلب في أمريكا، فإنه كان يُرجع نجاحه وتفوقه في عمله الذي كان يتقاضى فيه مليون دولارًا سنوياً إلى الابتسامة، فيقول: "لقد أكسبتني ابتسامتي مليون دولار".

ويقول (دايل كارينجي): "سبق لي أن قابلت الممثل الفرنسي (موريس شيفالييه) الذائع الصيت، فبدا متجهم الوجه كريه النظرات، ولكنه حين ابتسم عرفت البساطة والصفاء اللذان يسحر بهما الناظر في أفلامه، وأدركت أنه لولا تلك الابتسامة لظل موريس نجارًا مخمورًا في إحدى ورشات باريس"

وفي أمريكا يركزون في برامج التدريب الخاصة بالمهارات الاجتماعية، على تعليم الأطفال المنبوذين الابتسامة بدرجة كبيرة من الدفء، وقد أدى ذلك إلى إحراز نجاح كبير في تخليصهم من عزلتهم.

وهكذا أخي الداعية تجد أن الغرب والشرق توصلا إلى أن البسمة واجب اجتماعي، أما أنا فأقول: إنها ضرورة دعوية، فالداعية الذي لا تعرف الابتسامة إلى وجهه طريقًا، لا ينبغي له أن ينتظر النتائج المرضية.

يقول الأستاذ محمد قطب:

"لا يكفي المال وحدة لتأليف القلوب، ولا تكفي التنظيمات الاقتصادية والأوضاع المادية، لابد أن يشملها ويغلفها ذلك الروح الشفيف، المستمد من روح الله، ألا وهو الحب، الحب الذي يطلق البسمة من القلوب، فينشرح لها الصدر وتنفرج له القسمات، فيلقي الإنسان أخاه بوجه طليق".

ويُخبرنا الأطباء: أن الابتسامة يلزمها تحريك ست عضلات في الوجه، أما العُبُوس والتكشير، فيلزمه تحريك اثنتين وسبعين عضلة، إنها إذن خِلة سهلة ميسورة، بعكس العبوس وتكاليفه الجسدية!

[1]- مذكرات الشباب – محمد حسين هيكل.

وبقدر هذه السهولة التي لا تكلفك أدنى مشقةٍ، جعلها الله تعالى لنشر السرور، وتقريب الأوصال، وذهاب الضغائن والأكدار، وقد قيل لـ(سعيد بن الخمس): ما أبشَّك؟! قال: "إنَّه يُقوَّم عليَّ برخيص"؛ يعني: أنَّ البشاشةَ رخيصة، لا تُكلِّفه مالًا ولا جهدًا، وإنَّها غالية وقيِّمة؛ لأنَّها تجذب القلوبَ، وتقتلع أسبابَ البغضاء، وتزيد من حب الناس لك وإقبالهم عليك، وراحتهم فيك، هي أساس العشرة، وجمال الصحبة، وسر الإقناع، وسبب الانصياع.

وقال (عُروةَ بن الزُّبَير):"أُخْبِرت أنه مكتوب في الحِكمة: يا بُني، ليكن وجهُكَ منبسطًا، ولتكن كلمتُك طيِّبة، تكن أحبَّ إلى الناس مِن أن تُعطيَهم العطاء" [1]

ولهذا الأثر العظيم الذي تقتضيه الابتسامة، ما تركها الرسول ﷺ حتى في حالةِ الغضَب، فمَع شِدَّة عتابه للذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، لم تغب عنه الابتسامة!، يقول كعبٌ ﷺ بعد أنْ ذَكَر اعتذارَ المخلَّفين: "فجئتُه، فلمَّا سلَّمتُ عليه تبسَّم تَبسُّمَ المُغْضَب، ثم قال: (تعال)، فجئتُ أمْشي حتى جلستُ بين يديه" [2]

بل ما تركها حتى في سكرات الموت، يقول أنس ﷺ :"بَينما المسلِمون في صلاةِ الفَجْر مِن يوم الاثنين، وأبو بكر يُصلِّي بهم، لم يفجئهم إلا رسولُ الله ﷺ قد كشَف سِترَ حُجرة عائشة، فنظَر إليهم وهُم في صفوفِ الصلاة، ثم تبسَّم يَضْحَك" [3]

إن الذين يحرصون على الابتسامة، يدركون أنها رسالة حب إلى من يبتسمون إليه، إنها تسبق اللسان في إقرار المودة والألفة، وتجلب الراحة والقبول في نفس من يتلقاها منك، حتى أنك لو قابلت بها من يتجهم ويعبس في وجهك، فإنه لا يسعه إلا أن يقابلك بها، وبدون إرادة منه سيتحول إلى صديق لك.!

ومن هنا حرص الاجتماعيون والمصلحون على أن تكون البسمة عنصرًا أكيدًا في صفاتهم التي يعاملون بها مع من حولهم، بل هي السر الذي أدركه رسول الله ﷺ، فكانت كما ذكرنا أبرز سماته التي يداوم عليها.

---

[1]- روضة العقلاء لابن حبان
[2]- متفق عليه
[3]- متفق عليه

ولك أن تتخيل مجتمعًا يجعل أفراده من البسمة سمة وطبيعة يتعايشون بها، ويتهادون بمحياها، هل يمكن بعد ذلك أن تبقى آثارٌ لأحقاد أو ضغائن؟ إنه مجتمع متآلف متعاطف، يستظل فيه الجميع بمظلة الحب والوئام، بعد أن منحتهم الابتسامة أرق المشاعر.

إن المسلمين سجلوا عنايتهم بالبسمة وأدركوا أثرها في حياتهم، وأكد سلف الأمة على هذه الفضيلة، وأثرها العميق في النفوس رغم سهولتها وبساطتها..

ولله در القائل:

الق بالبشر من لقيت من الناس * جميعا ولاقهم بالطلاقة**

تجْنِ منهم جَنَى ثمار فخذها * طيبا طعمه لذيذ المذاقة**

وقال غيره:

لن تستتم جميلا أنت فاعله ** إلا وأنت طليق الوجه بهلول

ما أوسط الخير فابسط راحتيك به ** وكن كأنك دون الشر مغلول

وعن (حبيب بن أبي ثابت) قال: "من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو يبتسم".

أما الدعاة فليكن في علمهم، أن الذي لا يعرف كيف يبتسم، لا يعرف كيف يفتح قلبًا، أو يهدي حائرًا، أو يرد شاردًا؟! فالمرء بطبعه ينفر من الوجه العبوس، الذي يوحي باليأس والسخط والقنوط والضيق.

إن جموعًا عريضة من الناس تبني حكمها على العاطفة، وتخدعها المظاهر، ولا تُعنى ببواطن الأمور، وإذا أردت بكل سهولة أن تكسب قلوب الناس، فما عليك إلا أن تكلف نفسك ببسمة بسيطة، تتجمل بها في لقائهم.. وحاول أن تكون هذه البسمة طبيعية وعن قناعة وغير مصطنعة، حتى لا يشعر متلقيها ببوادر زيفها حينما تخلو منها الروح. وقد قرأت يومًا بعض النصائح التي ذكرها النفسيون، والتي تكشف عن أثر البسمة في حياة الإنسان، فكان مما قالوا:

1-اجعل الابتسامة رسولك إلى قلوب الآخرين، فهي مفتاح النفوس الذي يجلب الراحة والهدوء للمبتسم نفسه.

2-عندما تشعر أن الآذان قد أغلقت أمامك، وتعطل استقبال رسالتك، فعطر الجو بطرفة يتلوها ابتسامة.

3-حذار من الابتسامة الساخرة أو الباردة، فهي تحول بين الآخرين وبين الثقة فيك.

4-حاول التعرف على ما في نفس الآخر، من خلال رصد ابتسامته وملاحظة جبينه وحركات عينيه.

5-حاول أن تعود نفسك على أن تكون ابتسامتك وسيلة لإبلاغ رسالتك كما تريد، وإن كانت مشاعرك خلاف ذلك.

6-عوِّد نفسك على الاستمتاع بالطرائف المضحكة، لتتعود على الضحك أحيانا.

وللأستاذ الكبير (فتحي يكن) رحمه الله، كلام عظيم في (الاستيعاب) نضعه للقارئ حتى ترتسم الصورة بها ضرب من مثال دقيق حكيم حيث يقول طيب الله ثراه:

"ومن الصفات التي تفتح للداعية قلوب الناس، وتجعله محل قبول عندهم وألفة منهم، طلاقة وجهه وطيب كلامه، فالوجه هو عنوان الداعية والمرآة التي تعكس نفسيته وأعماقه، فإن كان متجهمًا أوحى بالضيق والتجهم، وإن كان طلقًا مبتسمًا أوحى بالبشر والخير، وليس المقصود بطلاقه الوجه جماله أو حسن تقاسيمه، فقد يكون الوجه جميلًا وليس فيه أثر من الطلاقة، وقد يكون قبيحًا ويفيض أنسًا وبشرًا، والداعية عليه أن يتعود طلاقة الوجه ولو أن يدرب نفسه على ذلك، وأن يعود نفسه الابتسام كائنًا ما كانت ظروفه ضاغطة أليمة، إن نجاح الداعية يكمن في قدرته على تكييف نفسه، وأن تكون له القوامة عليها وليس العكس، وأن تكون لديه القدرة على التحكم بنفسه حيال الظروف التي يمر بها وأن يعطى لكل مقام مقالًا..

أعرف بعض الدعاة يخرجون على الناس والابتسامة تعلو محياهم، وقد دفنوا في الأعماق همومًا ومشكلات لا يعلم مداها إلا الله، وأعرف آخرين لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم حيال أبسط المشكلات والملمات، فترى آثار ذلك بادية في وجوههم ومن خلال تصرفاتهم، فتشعر حيالها وكأنك أنت المسيء إليهم.

سمعت أن أحد الدعاة كان يلقى محاضرة في جمهور غفير في بعض أرياف مصر، وكان قد غادر القاهرة تاركًا أحد أولاده في مرض شديد، وأثناء المحاضرة دخل القاعة أحد أقرباء الداعية، واقترب من المنصة وسلم المحاضر قصاصة من الورق، فما كان من الداعية إلا أن قرأها ثم تابع محاضرته بشكل طبيعي، ودون أن يلحظ الحضور عليه أي أثر، وبعد أن انتهي من حديثه، أجاب على كثير من الأسئلة بطلاقة نفس ورحابة صدر، ثم صعق الناس بعد ذلك، عندما علموا أن قصاصة الورق التي وصلت الداعية، كانت تحمل نبأ وفاة ابنه المريض؟" [1]

أفسحوا الطريق ليعودوا إلى الله

إن السلف العظيم فتحوا قلوب الناس للإيمان، بالحب والإخلاص، وكان أسلوبهم في علاج العصاة منهجاً كريماً يقوم على الرحمة والإشفاق، بل إن ما ضربوه من صور الرفق واللين صارت مضرب الأمثال وأغنية الأجيال، وقد وضع شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله الرفق في المرتبة الثانية بعد الفقه، في الشروط الأساسية التي يتحلى بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر: "لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه" [2]

ويقول (عبد الرحمن بن جابر): مررت برجل مخمور ملقى في الطريق، فوقفت أتأمله فإذا به يقول: ورب العزة هو الذي فعل، والله العظيم إني أعرفه. إلخ. فقلت: هذا الفم الذي تفوح منه رائحة الخمر، يخرج منه ذكر الله تعالى على هذا؟ فأحضرت ماءً وطهرت به فمه، حتى يخرج ذكر الله من فم نظيف، فسمعت في ليلتي –وأنا نائم–هاتفًا يهتف: "إنك طهرت فمه من أجلنا، ونحن طهرنا قلبه من أجلك". فلما خرجت لصلاة الفجر، وجدت رجلًا في ركن المسجد، يبكي في صلاته، وتأملته.. فوجدته الرجل الذي كان بالأمس مخمورًا وملقى في الطريق. إن عبد الرحمن لم يقسو على شارب الخمر مع ثبوت الجريمة وتلبسه بها، وإنما عامله على كونه مسكينًا مُبتلى، حتى كانت نظرة الله إليه بالرحمة.. كرامة لفعل عبد الرحمن.!

---

[1]- الاستيعاب في حياة الدعاة- فتحي يكن.

[2]- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ابن تيمية.

ومن جميل ما ذُكر، أن أحد العلماء كان جالسًا في حلقته، فدخل عليه رجل معه حربته يريد أن يسأل، فلما وقف على هذا العالم، غرس حربته في الأرض فوقعت على أصبع هذا العالم، فلم يتكلم أو يتحرك!

حتى إذا انتهى الرجل من سؤاله أجابه العالم، ثم ذهب الرجل، فرفع العالم رجله، فإذا هي تنزف بالدم، فقيل له: لمَ لمْ تتحرك لما أصابك؟ فقال: خشيت أن يعلم بما فعل، فيرتج عليه السؤال، ثم يظل جاهلًا بدينه.!

وذكر الحافظ ابن حجر في مقدمة (فتح الباري) في ترجمة الإمام البخاري قال رحمه الله: "قال محمد بن منصور: كنا في مجلس أبي عبد الله البخاري، فرفع إنسان قذاة من لحيته وطرحها إلى الأرض، فرأيت (البخاري) ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده، فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها وطرحها إلى الأرض.

هكذا بكل سهولة ورفق، يعالج الضرر دون أن يُعنف صاحبه.!

وما أمر (أبو حنيفة) مع جاره الفتى بمتروك، فقد كان يشرب الخمر كل ليلة ويغرد بصوته:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ** ليوم كريهة وسداد ثغر

"كان الإمام ينزعج من جلبته كل يوم، وفي يوم من الأيام فقده ولم يسمع جلبته، فسأل عنه، فعلم أن الشرطة أخذته، فذهب إليه وشفع له عند الأمير ليخلي سبيله، فقال الأمير: وكل من أخذ في تلك الليلة إكرامًا لأبي حنيفة، فلما خرج الفتى قال له الإمام: أأضعناك يا فتى؟ وعوضه بمال عن أيام حبسه، فتاب الفتى، وأخذ يتردد على مجلس أبي حنيفة حتى تفقه"[1]

وفي هذا الموقف تأمل ماذا صنع الإمام الفقيه مع الفتى المذنب شارب الخمر؟ لقد حببه في الدين والعلم وارتياد المساجد حتى صار فقيهًا، ولو كان هناك أناس غير أبي حنيفة لقالوا: الحمد لله الذي أراحنا منه وعاقبه بذنبه، فبئس الجار هو، ولربما كسر عليه أحدهم بابه وانتزع منه الخمر، ونعته بالفسق والفجور، ولكن الإمام لم يفعل شيئًا من هذا؛ لأنه كان فقيه دعوة، قبل أن يكون فقيهًا في المسائل.

[1] - حماة الإسلام لمصطفى نجيب.

"إنك إذا واجهت العصاة كعاصفة رملية ساخنة، تحوَّل المدعوون إلى حوائط تصدك وتغلِبك، ابنوا للخطائين قصورًا من الخير، قبل أن تهدموا عليهم أكواخ الشر، فإذا بنيتم لهم قصور الطاعة، سوف يهدمون بأيديهم أكواخ الشر بما فيها من وحشة وظلمة وضياع!

إن ماء البحر، وإن كان ملحًا أجاجًا مر المذاق، فسوف يصاعد منه بخار يُشكل سحبًا يزجيها الحق تعالى لتتساقط ماءً عذابًا يحيي بها الله تعالى موات القلوب، وفي اللحظة التي ترى فيها المذنب في قمة الاستمتاع بجريمته، لا تكن عنيفًا، لا تضع الماء على النار، حتى لا يفسد النار والماء معًا، ولكن ضع الماء في إناء عازل، فتتحقق به الفائدة، وسوف تخمد النار، ثم يكون الانسجام الكامل بين الإنسان ومجتمعه وحقائق دينه.. أفسحوا الطريق ليعود العبد إلى ربه مع أخ له من قبل:[1]

يقول (ابن الرومي):

جعلَ اللهَّ مهْربَا وامْتَطَى الليلَ مركبَا

خادمٌ كان مرَّةً مُسْرِفًا ثم أَعْتبَا

راكعًا ساجدًا لهُ ليس يألُو تَقُرُّبا

فَرَضَ الخوفُ دمْعَهُ لثرى الأرضِ مشربا

لوْ تراهُ إذا دعا يا مليكًا مُحجّبا

اعفُ عنّي فقد رَكِبْتُ من الأمر معطبا

كسَّبَتْني جرائمي مكسبًا ساء مكسبا

وما أروع (الآجري)[2] حينما أخبر عن أخلاق الداعية العالم، بين من يُربيهم ويقوم سلوكهم، حيث يقول: "فأما أخلاقه مع مُجالسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئًا عن الفهم حتى يفهم عنه، صبور على جفاء من جهل عليه حتى يرده بحلم، يؤدب جلساؤه بأمسّ ما يكون من الأدب، لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم ويأمرهم بالإنصات مع الاستماع إلى ما ينطق به من العلم، لا يعنف السائل

[1] - المتقون هم المتحضرون- د. محمود عمارة.

[2] - هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، بدأ دراسته في بغداد عند كبار مشايخها وحدث بها، ثم انتقل إلى مكة فاستوطنها، واتفق المؤرخون على إمامته في الفقه والحديث مع صلاحه وورعه وزهده.

بالتوبيخ القبيح فيخجله، ولا يزجره فيضيع من قدره، يُقبل على من يعلم أنه محتاج إلى علم، ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمراء، وإذا سئل عن علم لا يعلمه لم يستحِ أن يقول: لا أعلم، وإن أفتى بمسألة فعلم أنه أخطأ، لم يستنكف أن يرجع عنها"[1].

"ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان تزينه التقوى، وما أحسن التقوى يزينها العلم، وما أحسن العلم يزينه الحلم، وما أحسن الحلم يزينه الرفق"[2]

إن صناعة الترفق لا يتجشمها إلا أولو العزم، الذين يداوون بكظم الغيظ جراحهم، فيقضون أهم حاجاتهم.

المرء يجمع والزمان يفرق ** ويظل يرقع والخطوب تمزق

لو سار ألف مدجج في حاجة ** لم يقضها إلا الذي يترفق

إن الترفق للمقيم موافق ** وإذا يسافر فالترفق أرفق

وإليك هذه الدرة:

(ليكن أمرك بالمعروف معروفًا.. و نهيك عن المنكر، غير منكر)[3]

لقد كان رسول الله ﷺ رحمة على للناس، رحمة في قوله، ورحمة في فعله، ورحمة في سلوكه وطباعه، وهنا نشاهد الداعية الذي يمتزج سلوكه بالرحمة نحو قومه. قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[4]

ثم أمره الله تعالى بقوله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)[5]

---

1 - من أخلاق العلماء للآجري.
2 - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم د. يوسف القرضاوي.
3- راجع فتاوى ابن تيمية
4- التوبة: 128
5- الحجر: 88

إنه الهدي الإلهي الذي تجمل به محمد ﷺ وسار به بين الناس، إنها السمات المؤهلة للوظيفة الجديدة، التي اختصه بها رب العالمين، يُخاطب بها الناس جميعًا على اختلاف أفكارهم وطبائعهم، مؤمنهم وكافرهم، بَرهُم وفاجرهم.

معركة الداعية..مع من تكون؟

بغض المعصية لا بغض العاصي!

مر أبو الدرداء ﷺ يوماً على رجل أصاب ذنبًا، والناس يسبونه، فنهاهم عنه وحدثهم مُوجهًا ومُعلمًا ومثيرًا في أنفسهم مواطن السماحة والارتفاع بالخلق إلى مرتبة السمو في التوجيه، بدلًا من اللوم والتقريع والسخرية، فقال لهم:

"أرأيتم لو وجدتموه في حفرة ألم تكونوا مخرجيه منها؟ قالوا: بلى قال: فلا تسبوه إذن واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي" [1]

إنه ﷺ يُبغض الذنب لا المذنب، المعصية لا العاصي، فهو يستقي فهمه من القرآن الكريم حينما قال تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)[2]

فالله تعالى لم يقل: ادفع بالتي هي أحسن المسيء، وإنما قال: السيئة.!

لأن معركة الداعية الحقيقية، ليست مع المسيء، وإنما مع السيئة.!

وهي ذات الحكمة الغائبة أو المتناسية، التي يلفتك إليها الصحابي الجليل (عبد الله بن مسعود) بقوله: (إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً ، فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، أن تقولوا: اللهم أخزه، اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية، فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئا، حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخير علمنا أو قال: رجونا أن يكون قد أصاب خيرا، وإن ختم له بشر، خفنا عليه عمله)[3]

"هناك فرق كبير، بين أن تُبغض الذنب وبين أن تُبغض المذنب!، لأن الذنب لا يُحل ولا يبيح بغض المسلم، والمسلم يجب أن يكون محبوبًا للمسلم، كما أن الذنب لا يخرج مرتكبه المسلم من حظيرة

[1]- أخرجه ابن عساكر كما في الكنز (147/2) وأخرجه أبو نعيم (225/1).
[2]- المؤمنون: 96
[3]- الزهد والرقائق لابن المبارك

الإسلام، ولسنا ممن يكفر بالذنب، صغيرًا كان أو كبيرًا، كما أن الصحابة – رضوان الله عليهم– ما كانوا يكفرون بالذنب والمعصية، ولا كانوا يبغضون المذنب ما بقي مسلمًا"[1]

ومن فتاوى الشيخ (ابن عثيمين) رحمه الله:

"إذا سمع الإنسان شخصاً يحلف بالنبي، أو بحياة النبي، أو بحياة شخص آخر فلينهه عن ذلك، وليُبين له أن هذا حرام ولا يجوز، ولكن ليكن نهيه وبيانه على وفق الحكمة، حيث يكون باللطف واللين والإقبال على الشخص، وهو يريد نصحه وانتشاله من هذا المحرم؛ لأن بعض الناس تأخذه الغيرة عند الأمر والنهي، فيغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه، وربما يشعر في هذه الحال أنه ينهاه انتقامًا لنفسه، فيلقي الشيطان في نفسه هذه العلة، ولو أن الإنسان أنزل الناس منازلهم ودعا إلى الله بالحكمة واللين والرفق، لكان ذلك أقرب إلى القبول وقد ثبت عن النبي ﷺ: إن الله يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف[2] وهكذا ينبغي لنا نحن في دعوة عباد الله، إلى دين الله، أن نسلك أقرب الطرق التي تصل بالحق إلى قلوب الخلق وإصلاحهم "[3]

إن الشيخ رحمه الله، أكد بإسهاب على قضية التغيير والحكمة في رد الخطأ، حتى يعرف الدعاة كيف يتعاملون مع النفس الإنسانية، التي لا تأسرها غير الحكمة والرفق؟

ومن هذه المعرفة يكون "من واجب المتقي إذا اقترف ذنبًا أن يعود، ومن قريب فإن من حقه علينا أن نعينه على النهوض وقد سقط على الأرض، ثم نزامله في مرحلة جديدة على طريق العودة، ليصل معنا إلى البر سالمًا" فإذا استقر به النوى بعد العذاب –عذاب الانحراف– فقد وجب عليه أن يكون في عون المذنبين الآخرين بلا منٍّ ولا أذى يلحقه بهذا الذي عصى ربه فغوى، فكذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم، ورد الجميل أن تقف بجوار العاصي الراغب في النهوض، ولا تكن مع الشيطان عليه.

"مضى الوالد الشيخ مع ولده في الطريق الواسع، وفجأة لمح الابن الصغير من بعيد رجلًا معروفًا بسوء الخلق، وعلى الفور أشار على والده بتعديل خط السير، حتى لا يلتقيان بهذا الرجل سيء السمعة، ولكن الوالد الحكيم لم يستجب لولده، ومضى في نفس الخط، حتى صار وجهًا لوجه أمام

[1]- من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق - أد. عبد الله الزبير عبد الرحمن.
[2]- رواه البخاري ومسلم وغيرهما
[3]- مجموع فتاوى ابن عثيمين- المجلد الثاني.

هذا الرجل المنحرف، وقال هذا المنحرف للوالد وولده: أنا أستحي من الاقتراب منكما، لما أعلمه من طهارتكما ومن سوء خلقي؟

وكان رد الوالد مختصرًا إذ قال له: فلعل حياءك أن يمنعك يومًا، ثم التفت إلى ولده قائلًا: ولعل غرورك أن يرديك.! وفي لمحة خاطفة قال للعاصي: يا رجل إذا كنت تستحي منا، أفلا يكون حياؤك من الله أحق؟

لقد كان الدرس بليغًا، وضع الرجل في دوامة من الأفكار، سوف تلفظه على شاطئ الأمان، بعدما هزه الوالد بالجملة المركزة التي أصابت قلبه في الصميم! وهكذا كان المفتون، يبذلون فطرة الإيمان، ومن صور البذل أن يدلوا الحيارى على الطريق"[1]

إن قلب الداعية أبدًا لا يعرف الكره، إنه قلب عامر بالحب، ذاخر بالود، يسع الجميع، يغفر ويسامح ويعفو ويصفح، أما أن يبادر الداعية بالعداء والإساءة والتطاول والهجوم، فإنه داعية سوء لا داعية إسلام، وانطلاقهُ في هذا الميدان هدم لا بناء، وعاقبة وخيمة تجر على الدعوة خيبة وخسارًا.!

إن المعركة الحقيقية ليست مع الأشخاص، والبُغض الحقيقي يكون للمعصية وليس للعاصي، فالخلاف بينك وبين المذنب هو العمل السيء، وحينما يتركه فهو أخوك في الدين، وإنك لتلمس هذه الحقيقة فيما حكاه القرآن من شأن الطائفتين من المؤمنين يقتتلان، فإنهما مع القتال والسلاح والدماء، مازالا بعين التعبير القرآني مؤمنين، ولعله الإيمان الذي حرص الإسلام على إبقائه، حتى يكون الدوحة والموئل الذي يعود إليه الفريقان بعد شقاق كبير.! وقد عبر بعض فقهاء الدعوة بقوله:

"كل إنسان قادر على أن يدفع بالتي هي أحسن، والحسن زينة وجمال، وربما كان ميسورًا أكثر من الكمال، وإذن.. فخذ طريقك إلى العاصي من زاوية الجمال أولًا.. وضح له ما في العمل الجميل من جاذبية تزري بالعمل الرزيل، وكل إنسان قادر على اكتشاف الفرق بين الجميل والقبيح بالعين المجردة وللوهلة الأولى، أما منطق الكمال، وإشعار المدعو أن القضية قضية الحلال والحرام، فربما حمله ذلك على النفور من الداعية"

[1]- المتقون هم المتحضرون. العلامة الدكتور- محمود عمارة.

ولعل النحلة تلك الحشرة الضئيلة الصغيرة، التي لا تضاهي الإنسان في جسمها وعقلها، و قد تعلم بعضنا من حكمتها، يقول علي بن أبي طالب ﷺ :" كونوا في الناس كالنحلة في الطير؛ إنه ليس من الطير شيءٌ إلا وهو يستضعفها، ولو يعلم الطيرُ ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها، خالِطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايِلوهم بأعمالكم وقلوبكم؛ فإن للمرءِ ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع مَن أحَبَّ"[1]

إنها تطير وتهبط، تحط هنا وتذهب هناك، لا تفسد ولا تكسر، فهي تنفع ولا تضر!، وهكذا عمل الداعية، يحب المنصوح، ويخرج الكلمة إليه رقيقة هادئة، تشع بالود والإشفاق، تتباهى بحسن عرضها، وجمال لفظها، حتى تصيب منابع القبول، وليس يعقل أن يقاوم المدعو هذه المشاعر التي تفوح حباً ورفقاً، إنه لا شك سيخلع عن نفسه ثوب التحدي، ويطهرها من صور العناد الضالة، ليسير في موكب الإيمان.

يُروى أن الأواب العابد (أبو حازم) أبصر هو وأصحابه أثناء رمي الجمرات في الحج، جارية ترمي الناس بطرفها الفتان يمنة ويسرة، فقال لها: اتقي الله فإنك في مشعر من مشاعر الله عظيم، فلما نهى الفتاة وقال لها ما قال، التفت إلى أصحابه وقال لهم: تعالوا نسأل الله ألا يعذب هذا الجمال بالنار.!

لقد تصرف بحكمة ولطف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكتفِ نصحه عند هذا القول، وإنما أراد أن يُعلم أصحابه كيف يبَرُّون بالناس ويحبونهم ويدعون الله لهدايتهم؟ ولعلنا نتصور هنا بعض الشباب المتشنج الذي لو كان في موقف أبي حازم، فلن يترك الفتاة حتى يكفرها أو يفسقها، وربما ضربها ضرباً عنيفا شوه به خلقتها الجميلة، انتصارا لدين الله وحفظاً لحدوده.!

أما إذا خلت القلوب من مادة الحب، فهي كالبيوت الخربة، لا حساب لها ولا زكاة عليها! وبوسع الدعاة أن يقدموا النصيحة سهلة ميسورة لا صعوبة في طرحها على المنصوح، لكن الاختيار الفاصل، حينما نهيئ لها المناخ المناسب لتمس شغاف القلوب في رفق ولين وهدوء وابتسام، فهي كما قيل: لن تبلغ غرضها حتى تحسن عرضها، ولن تصيب الغرض ما دام في أسلوبها مرض، فاستكثروا

[1] - سنن الدارمي (320)، إسناده صحيح، وهو موقوفٌ على عليٍّ.

من التودد بمن تدعون، وأقلوا اللوم فإنكم تدعون إلى الحق المر، فلا تجمعوا على الناس مرارة اللوم ومرارة الالتزام، وليكن سلاحكم دوماً في الكلمة الطيبة واللفظة الهادئة.

أطفئوا باطلهم بالرفق

ما أروع أمر الله سبحانه للنبيين الأخوين موسى وهارون!

إن الله تعالى يوصيهما باللين مع الطاغية الجبار، الذي ادعي الألوهية من دونه!

قال تعالى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[1]

وهذا لأن القول اللين كما في الظلال: "لا يُثير العزة بالإثم؛ ولا يُهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان".

قال ابن عباس – رضي الله عنهما–: (لا تعنفاه في قولكما وارفقا به في الدعاء)[2]

وقال الطبري: (أي قولاَ لهُ بالشَّفَقة، ولا تقولاَ له قولًا عَنِيفًا، فيزدادَ غَيْضًا بغِلَظِ القولِ)[3]

وقيل: عِدَاه شبابًا لا يهرم بعده، وملكًا لا ينزع منه إلا بالموت، وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته.

وقيل: لا تجابهاه بما يكره، والطفا له في القول، لما له من حق تربية موسى.

وقيل: القول اللين.. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولِينها خفتها على اللسان.

وقال الحسن: هو قولهما: إن لك ربًّا، وإن لك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا، فآمن بالله يدخلك الجنة، يقِكَ عذاب النار.

وقيل: أمرهما تعالى أن يقدما المواعيد على الوعيد كما قال الشاعر:

أقدم بالوعد قبل الوعيد ** لينهى القبائل جهالها

---

[1]- طه: 43-44

[2]- روح المعاني للآلوسي.

[3]- تفسير الطبري.

وقيل: حين عرض عليه موسى وهارون -عليهما السلام- ما عرضا، شاور آسية فقالت: ما ينبغي لأحد أن يرد هذا، فشاور هامان وكان لا يبت أمراً دون رأيه، فقال له: كنت أعتقد أنك ذو عقل.. تكون مالكًا فتصير مملوكًا، وربًا فتصير مربوبًا، فامتنع من قبول ما عرض عليه موسى.!

وقيل: القول اللين ما حكاه الله هنا وهو: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)[1]

وسواء كان المقصود هذا أو ذاك، فإن المقرر في عموم الآية الكريمة، أن الرفق واللين، مطلب إلهي في الدعوة إلى الدين، ولو كان مع الطاغية فرعون الذي ادعى الألوهية، ومع ذلك طلب الحق تعالى من موسى وهارون، أن يلايناه في الكلام ويلاطفاه في القول.! فكيف ببعض الدعاة اليوم وهم يقسون على عصاة المسلمين الموحدين، ويزجرونهم بلا رفق أو رحمة؟ ألم يسمعوا ما أراده الله تعالى لفرعون؟ بل يقرر الحق في صراحة أن القول اللين طريق الخشية والمعرفة، التي تشق القلوب شقًا إلى النور والهدى، قال تعالى: (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[2]

إنه خطاب صريح في بيان الحق، ولكنه مشوب بالرفق، ولا يجد الباطل فيه إثارة لنفسه المثقلة، إذ لم يقل الحق تعالى له "أزكيك" بصيغة الأمر، وإنما قال: "تزكى".

ولقد وقف يحيى بن معاذ ﷺ، على جلال الآية المباركة، فصدع نحو السماء داعيًا ربه بقوله: هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله؟!

ثم يبلغ الرفق واللين مدى أبعد من ذلك.. إذ يقول موسى عليه السلام كما حكى عنه القرآن الكريم: (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى)[3]

وفي قوله تحذير لطيف وصادق مع فرعون، الذي لم يوجه له العذاب مباشرة، وإنما قال: (عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى)، وهذا فيه ما فيه من لين القول والتلطف في التحذير، الذي يكسر عناد الطغاة، ويلين عريكة العتاة.

[1]- طه:47
[2]- النازعات :18-19
[3]- طه: 48

"وإذا كان الله تعالى قد أمر موسى عليه السلام مع مقامه وحفظ الله له، فغيره أولى بالأخذ باللين والتلطف في الخطاب، فإن القائل باللين، ليس بأفضل من موسى، والمقول له، ليس بأخبث من فرعون، ولا شك أن الداعية المسلم قد يخرج في بعض الأحيان عن هذا النهج اللين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن عليه دائمًا أن يحمل نفسه عليه؛ لأنه السبيل القويم الذي دلت عليه الآيات الكريمة وطبقه الرسول ﷺ فعلًا"[1]

دخل رجل على (المأمون) وأراد أن يعظه، فأغلظ له القول، فقال له المأمون معاتبًا: لقد أمر الله موسى وهو خير منك، أن يذهب إلى فرعون وهو شر مني يدعوه فقال تعالى: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[2]

فانقلب الواعظ موعوظًا والموعوظ واعظًا.!

إن لسان الداعية هو الوسيلة المعبرة عن أفكاره وأذواقه، وإن لم يكن متحكماً في هذا اللسان ضابطاً لأطروحاته منتقياً لكلماته، خسر القلوب، وملته النفوس، وأعرضت عن حديثه ودعوته الآذان.

ومما قيل في وصف الداعي: "يَنبغي أن يكون واسعَ الصَّدْر، منبسطَ الوجه، ليِّنَ الجانب، يأْلَف الناس ويألفونه؛ حتى لا ينفضوا مِن حوله، فكم مِن سَعةِ صدرٍ وبساطة وجهٍ ولِين، أدخلتْ في دينِ الله أفواجًا من الناس.."[3]

هناك من خصومك من يدرك أن العصبية والغضب، يُفقدانك قضيتك، وبكل سهولة يحرصون على استدراجك واستفزازك، فإذا اشتعلت غضبًا خسرت كثيرًا من تقدير المدعوين لك، حينما كانوا يرون في هدوئك وقار الدعوة وثباتها، ومن ثم فإن لك منهجاً تتبعه وقت الغضب، لتضبط به نفسك في ثورتها، وهو منهج قرآني يحثك على العفو عن إساءات الناس ومقابلتها بالإحسان، قال تعالى:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[4]

---

[1]- أصول الدعوة – عبد الكريم زيدان.
[2]- طه: 44
[3]- من كلام الشيخ بن عثيمين
[4]- آل عمران: 134

كما كانت وصية لقمان لابنه: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1]

وفي تحقيق منشور تحت عنوان (غلاظ القلب.. دعاة يفرقون ولا يجمعون)[2] عبَّر المتحدثون عما شعروا به من صدمة حيال التصرفات والأقوال القاسية من بعض الدعاة، وكيف أوجدت حاجزًا نفسيًا كبيرًا منعهم من إيلافهم والإصغاء إليهم؟! يقول أحدهم:

"رجع أخي (13 عامًا) من محاضرةٍ دينية، كان يستمع إليها في المسجد القريب متذمّرًا عابسَ الوجه، وعندما سألته عن أسباب هذا التغيّر، قال:

"بينما صار نقاشٌ بين المستمعين حول موضوع المحاضرة، حدثت جلبة قويّة في القاعة، حيث انزعج الدَّاعية المحاضر، وما كان منه إلاَّ أن نهر الحاضرين بقولٍ أزعجنا جميعًا حين صرخ: إن لم تصمتوا الآن، فسأدعو الله عليكم أن يمسخكم قرودًا أمام عيني، ولعلَّ باب السَّماء يكون مفتوحًا في هذا الوقت.!

أخي الذي بدا مصمّمًا على عدم حضور ندوات دينية بعد ذلك، تابع بنبرة المقهور متسائلًا: ألا يستطيع أن يزجرنا عن افتعال الضّوضاء بلفظ الخير؟! أو أن يدعو لنا بالهداية؟! أو يطالبنا بالصَّمت بأسلوبٍ لبق؟! لكنني تداركت الموقف حين ضربت له مثلاً بأصابع اليد الواحدة، وأنَّ الدعاة إلى الله ليسوا واحدًا، بل كلّ منهم له أسلوبه الذي قد يصيب وقد يخيب.

وتحكي إحداهن نقلًا عن صديقتها: "كنت في بدايات عهدي بزيارة المساجد، حينما رأيت يومًا منامًا أسعد قلبي، رأيته ﷺ يوقظني من نومي كي أصلي الفجر، وأمّ بي، فصحوت وقد ارتسمت على وجهي ابتسامةً لن أنساها أبدًا"..

في ظل فرحتها العارمة –تكمل صديقتي القصة– هرولت إلى حيث أستاذتها الدَّاعية في المسجد الذي بدأت فيه قبل شهر تقريبًا حفظ القرآن الكريم، وقصّت عليها رؤياها، فتغيّر لون وجهها إلى الأصفر، وصرخت فيها:" إنّه محض هراء.. أنا حافظة للقرآن الكريم، وأصلّي معظم الصلوات في المسجد، وأعلّم الفتيات أمور الدّين والدنيا، ولم أره قط.. فكيف ترينه أنتِ يا ابنة أمس؟!"

---

[1]- لقمان :17

[2]- من تقرير منشور بموقع بصائر.

تكمل صديقتي: "حينها شعرت أنَّ شيئًا انكسر في روحي، ولم أرغب أبدًا في إتمام تعاملي مع تلك الدَّاعية، التي لم تعرف أن الله سبحانه وتعالى أدخل رجلًا-لم يكن ذا دين- الجنة في كلبٍ سقاه".

وقال شاب في السادسة عشر من عمره: "بعد أن صلينا العصر في الجامع القريب من منزلنا، حضر داعية كي يقدّم ندوةً حول الأخلاقِ وآداب التعامل مع الآخرين، وما كان فيها شائبة.. استمتعنا بمحاضرته، وتعلّمنا منها دروسًا قيّمة على رأسها، كيف نردع من يفعل الخطأ بالمعروف، والحديث الطيّب الذي يساعد في تحبيب المستمع بدين الله سبحانه وتعالى ويرغب في عمل الخير؟ ولكن بعد خروجنا من المسجد، وعلى بعد عدّة خطوات منه، أدهشنا الشيخ الدَّاعية، حينما أمسك بطفلٍ لا يتجاوز عمره (5 سنوات) وقد أوسعه ضربًا، وبدأ بشتم والده الذي ربَّاه، وعندما تساءلنا عن السبب أجابنا لاهثًا: "لقد مسّ الذّات الإلهية بكلامٍ قذر والعياذ بالله"

ويتابع: رغم عظيم خطأ الطفل، فليست هذه هي الوسيلة الصَّحيحة لتقويم سلوكه، وعندما تذكرنا محاضرته التي انتهى منها قبل قليل، أدركنا أنَّ بعض الدُّعاة لا يعملون بما يقولونه، بل على العكس.. ربَّما يبعدون الناس أميالًا عن الهدف الذي يسعون إليه، وهو التقريب بينهم وبين الإسلام.

فيما تحدَّث ثالث عن داعيةٍ في منطقته، لا يفتأ يحكي مواصفات المؤمن في ندواته ومحاضراته، ويحث على برّ الوالدين على وجه التحديد، فيما الكل يعرف أنَّه يقاطع أهله لما بينهما من مشكلات.

ليست حماسة بل انتكاسة!

في حياتنا.. تمر الدعوة الإسلامية بمراحل عسيرة، فهناك من يريدون وأد تيارها وهدم منابرها، وتشويه دعاتها ورموزها، وبقدر هذا العداء الذي نواجهه ونعرف مصدره، تأتينا الطعنة من الخلف، فكثير ممن ينتسبون للدعوة لا يملكون الإمكانات التي تؤهلهم للقيام بأمرها، وليسوا على القدر المطلوب من أدب الداعية، وفهمه ووعيه.. ومن ثم.. كان لزامًا ألا يتصدر لها، إلا من كملت عُدته واستعداده، واستجمع في نفسه كل المؤهلات التي تتطلبها هذه المهمة العظيمة.

إن الداعية الغليظ الشديد، لا يمكن أن يحقق نصرًا أو كسبًا للدعوة، إنه معول هدم لما يبنيه غيره من الدعاة الفاقهين، والذين يسوقون الناس للحق بالسياط، يضرون بالدعوة، ويدفعون الناس

للانفضاض عنها، ومن البلية أن تراهم يَسِمِون ذلك قوة وحماسة في الدين، وما هو بقوة، وإنما جهل مفرط وأفق ضيق، وفهم معوج لطبيعة الطريق.. فكيف يكون داعية هذا الذي يترصد أخطاء الناس، فيقيم الدنيا ولا يقعدها لأجل نزوة من عاصٍ أو ذلة من مُقصر، فلا يُقيل عثرة، ولا يحتمل عذرًا، لتكون النتيجة بغضًا للحق ودعاته؟

كيف يكون داعية.. هذا الذي يصب لعناته على المذنبين، ويمنح العصاة ألقاب الفسق والفجور، ويتخذ منهم موقفًا لا يُتخذ إلا من الملاحدة أعداء الدين؟ إن هذه الصورة المنفرة ما عرفها الدعاة الأول، وما كان عليها الداعية الأعظم ﷺ ولا صحبه الكرام، وما سمعنا عن داعية فتح القلوب إلى الله بالغلظة والخشونة! وما علمنا داعية يُعنف الناس صباح مساء، فيألفونه ويتجمعون حوله، ويحملون فكره، وينصرون غايته.

لقد كان رسول الله وأصحابه، يسعون الخطائين بقلوبهم الرحيمة، وكل داعية مطالب بدراسة سيرة النبي ﷺ، ليرى ويعرف كيف كان يعامل الناس؟ لقد كان حديثه ﷺ رقيقًا، ووجهه بشوشًا مشرقًا، وحواره هادئًا لينًا، يرجو إيمان الناس، ويسعد بهدايتهم، ولم يكن أبدًا ناقمًا لاعنًا، داعيًا بالهلاك والويل والثبور، حتى في أشد المحن، و أعتى النوائب.. ما كان يدعو إلا بالخير والهداية لمن آذاه، ولسانه يقول:

"عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله".

يقول علي رضي الله عنه: (القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه)

إنها وحشية تنكر الألفة بطبعها، وتستعدي من يقترب منها أو تهرب منه، فمن تَلايَنهَا وأظهر لها الرفق واللين، ألفته وأحبته وأقبلت عليه.

وسئل الإمام مالك رحمه الله: يا إمام، الرجل يكون عالمًا بالسنة أينافح عنها؟ قال لا: يعرضها فإن قبلت وإلا سكت.!

فأين كثير من شبابنا المندفع، عن هذا الفقه الرصين، والحكمة البالغة.؟! إن أسلوب التحدي ولو بالحجة الدامغة، يُبغض صاحبه للآخرين، فيجب التلطف؛ لأن كسب القلوب أولى من كسب

المواقف، واللين سمة المسلم، وركيزة شخصيته، فإذا تعامل مع الآخرين، فهو يبذل فطرة اللين بلا تكلف.

وقد قيل: أن الداعية يكون على شيء من العلم ومن أهل التصانيف.. لكن بحار العلم لا تغني مثقال ذرة عن الحكمة، والتفوق العلمي لا يغني أبداً عن النضوج العاطفي، الذي يبصرك بمواقع الضعف في كيان البشر، فتلمسها برفق ولين. إنها عقبة ليست بالهينة، تُلقي بأوزارها على طريق الدعوة ومستقبلها، وقد يظن أحدهم أنه وقودٌ وذخرٌ للمد الإسلامي، ولكنه في الحقيقة وبال يهدد بانحساره.

عجيب غريب ما يحدث، فالتدين صار صناعة يحسنها من لا صناعة له، ويقدر عليها ويبدع فيها كل من فشل في مجالات الحياة، بل من المذهل أن ترى التدين وقد صار مأوىً لمرضى النفوس وأصحاب العلل والعقد النفسية! فكل فاشل في حياته، يلجأ للتدين حتى يشعر فيه بالتفوق على الناس، وكل نكرة في الحياة، يلجأ للتدين حتى يرى نفسه فوق الجميع يأمر وينهى، وكل ضعيف مخذول يركب التدين حتى يشعر بنفوذه وقوته.!

ما أشد معاناتنا من هؤلاء الذين تمور بهم عقدهم، فتنعكس أول ما تنعكس على دعوتهم، وأسلوبهم في التدين والالتزام.. إن أول حرفة يتقنونها هي التشدد والقسوة والجرأة والتطاول، وربما لا تجد لأحدهم باعًا في العلم، ولا رصيدًا من فقه.. وإذا به يهيل التراب على العلماء الكبار، الذين لهم في ميدان الدعوة جهاد كبير، وتاريخ ضخم من النضال والكفاح.!

بل تجد الواحد منهم قرأ كتابًا أو كتابين، وظن بذلك أنه جمع العلم من أقصاه إلى أقصاه، وصار أهلًا للفتوى والاجتهاد والطعن والتجريح.. إن كثيرًا من الشبان نفّروا الناس من دين الله، وشوهوا صورة الصحوة الإسلامية في كثير من العقول والقلوب؛ لأنهم يفتقدون التربية الراشدة والتوجيه السليم.. من أجل هذا نركز اليوم على الرفق واللين في الدعوة إلى الله.. "فرارًا من هذا الطراز العابس من شبان لم يتجاوز الواحد منهم العشرين ربيعًا، يحدثونك بوجه نافر، ونبرة حاسمة، ورأي واثق، وقد يضربون بقبضة اليد على المنبر قائلين: ما أكثر ما قيل فوقه من كلام! وهكذا وبجرة لسان.. يحاولون شجب مجهود جيل من العلماء صنعوا المعجزات، بل وصلت التبعية العمياء إلى الاقتداء بمراهق في

كيفية صلاته، ونبذ هذه النماذج من علمائنا فوق الستين، وهكذا يفعل علماء القرن الحادي والعشرين من الشباب، ولهذا نوصي باللين فرارًا من خطر يهدم الدعوة عظيم"[1]

كيف عامل الإسلام أعداءه؟

إذا كنا نرجو دعاة اليوم أن يعاملوا المذنبين بالرفق واللين، وإذا كنا نحاول ترويض المتوحشين ممن ينتسبون لحقل الدعوة، فإن هناك صورًا راقية في ميدانها، لابد أن يعاينوها وينظروا في أنفسهم، هل هم منها في شيء؟

هلموا بنا جميعًا نتساءل سويًا: كيف عامل الإسلام أعداءه؟ وما هو المنهج الذي أقامه ﷺ في معاملة المشركين الذين لا ينتسبون للإسلام، سواء من كان منهم مسالمًا أو محاربًا مبغضًا؟

لقد قدم الرسول ﷺ نموذجًا فريدًا لأدب الدعوة، وكان رقيقًا مهذبًا في مخاطبة الكفار والحانقين عليه، ولم يؤثر عنه يوماً أن أغلظ لأحدهم في الحوار، أو عيره بنقيصة فيه، تمامًا كما يُعيّر أدعياء الدعوة من أذنب من المسلمين، أو غلبه الشيطان على المعصية.

انظر لأدبه ﷺ، ورفقه واحترامه في حديثه وتعامله مع المشركين، لقد أصّل للحوار الراقي، ووضع القدوة في السماع للآخرين، فليس معنى أنه كافر، أن أُلغيه، أو أُقصيه ولا أُصغي له، ولا أستمع منه، لأنني في النهاية داعية أرجو هدايته.

وهذا هو (عتبة بن ربيعة) سيد من سادات مكة، ومن أشراف القوم، وعِلّيَة الناس.. استأذن قومه من المشركين يومًا أن يذهب للنبي ﷺ ؛ ليعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فأذنوا له.. فلما جلس إلى رسول الله ﷺقال: "يا ابن أخي، إنّك منا حيث قد علمت من السلطة والعشيرة، والمكان من النسب، إنّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفّرت به ما مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها.

فقال الرسول ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع"، فقال له عتبة ما قال، حتى إذا فرغ قال له الرسول ﷺ :"أو قد فرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم، قال "اسمع منّي"، قال: أفعل، فأخذ رسول الله ﷺ يتلو

[1]- فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام- د. محمود عمارة

عليه سورة (فصلت) حتى انتهى من الآية موضع السجدة منها سجد، ثم قال لعتبة: "قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم: "نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، وطلب عتبة إليهم أن يدعوا الرسول وشأنه فأبوا وقالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه"[1]

إنها ملحمة نبوية عظيمة في أدب الحوار لا يجب أن يغفلها الدعاة، ولا أن تغيب عن خاطرهم ليتعلموا منها، وينقلوا هديها إلى واقعهم، وللنظر ما فيها من نقاط مهمة نركز عليها:

1- قبل النبي ﷺ أن يستمع إلى حجته.

2-ناداه بكنيته فقال: قل يا أبا الوليد، وفيها من الاحترام والتقدير.

3-لم يقابل حديثه بالسخط والإعراض فيغلق أذنه ويعرض عنه.

4- تأكد من انتهاء كلامه وعرض حجته والانتهاء منها حينما قال له: أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ وهو درس عملي يرفض المغالبة بالصوت والرغبة في الحديث قبل أن يتم المحاور حديثه.

4-سمع النبي ما يعرضه عليه من الرشوة ومتاع الدنيا، فلم يتزحزح أو يتلعثم، حتى يتعلم الدعاة ألا تنخلع قلوبهم أمام غرور الدنيا ومتعها، وأن يثبتوا في وجه الإغراء، كما يثبتون في وجه الإيذاء.

كما استطاع النبي ﷺ أن يجعل من فضيلة العفو، طريقًا يستميل به قلوب المشركين نحو الإسلام، حين عفا عنهم ولان لهم، وراعى قرابتهم، وخطب فيهم قائلًا: "اذهبوا فأنتم الطلقاء!".. وفي الموقف نرى العدالة والمساواة والتسامح، وحسن معاملة الأعداء في الإسلام، كما ورد عنه ﷺ أنه كان يلاطف أبا جهل وعقبة بن أبي معيط، وهما من هما كفرًا وعنادًا وعداوة.! وليس بيننا اليوم من هو أفدح جرمًا من عقبة، ولا أشر من أبي جهل.

استشهد حمزة، فعزم الرسول ﷺ أن يمثل بسبعين من قريش حتى يشفي ألم نفسه، لكن الله تعالى رده عن ذلك، فتراجع وعفا عن قاتل عمِهِ، وقبِلَ إسلامه، ثم تأتيه (هند) متنكرة فيعفو عنها وهي التي سلطت على قتله.!

[1]- رواه ابن إسحاق والبيهقي في الاعتقاد، وأبو نعيم في الدلائل وغيرهم بسند حسنه الألباني.

وفي ملحمة الجدال نرى القرآن، يأمر بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب، قال تعالى:

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[1]

"فإذا كان هذا أسلوب جدال المسلم لغير المسلم، فكيف يكون جدال المسلم للمسلم، وقد أظلتهما وحدة العقيدة والأخوة في الدين؟"[2]

ثم أرأيت إلى (علي بن أبي طالب) ﷺ، كيف كان ينظر لمخالفيه في الرأي والاجتهاد؟ إنه لا يغيب عنه أبدًا أنهم مسلمون، في الوقت الذي نرى بعضاً ممن يخالفوننا في الرأي يرموننا بكل الشبهات والتُّهم، فجور وفسق وإرهاب وخروج عن الدين، بل يودون لو أن صاعقة نزلت علينا من السماء فأردتنا جميعاً صرعى مجندلين، لكن عليًا كان شيئًا آخر.. فقبل أن تبدأ موقعة صفين، كان لا يزال يرجو أن يفيء (معاوية)ﷺ إلى الحق على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه وتحفزه للحرب والقتال، ويومئذ علم الإمام أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم (معاوية) ولعن أهل الشام و هما: (حُجر بن عدي) و(عمر بن الحمق)، فأرسل إليهما آمراً أن يكفا عن هذا الشتم واللعن، فقدما عليه، وسألاه: يا أمير المؤمنين؛ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! أجابهم الإمام: بلى ورب الكعبة، قالا: فلِمَ تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ فقال: "كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لج به".

لله درك يابن أبي طالب، فعن أي نفسٍ نحكي ونتحدث؟ إنهم أعداءه الذين يواجهونه بالسيف، ولا يرون حرمة في الخروج عليه وقتله، ورغم هذا يدعو لهم بالهداية والصلاح، ويتمنى أن يصلح الله ما بينه وبينهم، وكان الأوْلى أن يدعو الله أن يمنحه أكتافهم ويظهره عليهم.

عجبًا لعلي.. فبدلاً من أن يفرح لسب عدوه على لسان رجاله، وهو ما يعني شدة الولاء له، والعداء لعدوه، إذا به ينهاهم عن ذلك، ولا يريد لهم أن يكونوا شتامين لعانين.! ولكن لم العجب؟ وهو

---

[1]- العنكبوت: 46

[2]-الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف – د. يوسف القرضاوي

العاقل الذي قبل أن يدرك أنهم أعداءه، فإنه كان على يقين بأنهم مسلمون موحدون يختلفون عنه في النظر والرأي.

إن القول اللين، له فعل السحر على العدو الذي يكيد لك وتكيد له، فهو يكشف صورة أخرى غير الصورة المتحفزة التي يظنها فيك.. وقد كان تلامذة (النورسي) يحكون عما بدر من أستاذهم في أيام مرضه، فعندما كانوا في (أميرداغ) التي حُكم عليه فيها بالإقامة الجبرية، كان عليهم أن يقدموا تقريراً طبياً عن حالة أستاذهم الصحية إلى المحكمة في (طامسون)، وكان الناس يعتقدون بأن طبيب المدينة هو رجل شيوعي ملحد يُعادي الأستاذ، ولم يكونوا يتوقعون بأن هذا الطبيب سيكتب التقرير المطلوب لحالة شيخهم، وحينما أتى الطبيب، قبل الأستاذ زيارته وكان متمدداً على فراشه يُعاني من مرض شديد، ومع هذا جلس مع الطبيب ساعات طويلة وحده، لقد تحدث معه عما عاناه من مصاعب ومشاق، وأن غايته في الحياة ليست سوى الإيمان، ثم بين له أنه بحاجة إلى تقرير طبي، ولكنه قال للطبيب: لا أطلب منك أن تزودني بالتقرير باسمك، لأنني أخشى عليك الأذى، بل حوله إلى مدينة (اسكي شهر)، ثم أعطاه النورسي كتاب (الحجة الزهراء) وأوصاه بالصلاة، ولما خرج الطبيب من غرفة الأستاذ النورسي قال: يا خسارتنا، لم نتعرف على هذا العالم من قبل، فقد أصبحت مديناً لربي بقضاء الفوائت.

وانظر أيها الداعية إلى هذه الحرب التي تأكل الأخضر واليابس، ويكون الإنسان فيها وحشًا كاسرًا لا تعرف الرحمة والشفقة إلى قلبه سبيلًا؟ لقد وضعها الإسلام في إطار من الرحمة والرفق غير مسبوق، تمامًا كمن يضع عودًا يابسًا بين النار، وتأبى أن تعدوا عليه وتمسه بلهيبها المحرق، تمامًا كمن يضع حملًا وديعًا بين قطيع من الأسد، فلا يقربونه أو تكشر له عن أنيابها، إنها صورة إنسانية لم يعرف العالم لها مثيلًا من قبل، قدمها أولئك المسلمون، الذين بهروا أعداءهم بإنسانيتهم أكثر مما بهروهم بقوتهم.

إن الصّديق ﷺ يوصي (أسامة بن زيد) وجيشه حينما سيره إلى الشام، بقوله:

(أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني :لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرا، أو شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نحلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة

مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله)[1]

في هذه الوصايا العظيمة التي نطق بها رأس الدولة المحمدية، ترى كيف كان المسلمون يعاملون الأعداء؟، وكيف كان سلوكهم في الحرب ؟ وكيف كانت قلوبهم تمتلئ رحمة وشفقة على الصغار والشيوخ والنساء؟، بل كانوا يتركون للرهبان والقسوس مطلق الحرية في النسك والعبادة، مما يدلل على المثالية الفائقة والنبل الفريد.. لقد نهى الصّديق ﷺ عن الخيانة والحقد، وفعل أي شيء يستوجب الاعتذار، وعن تعذيب الأعداء والتمثيل بهم، وقطع النخل وحرقه، وقطع الأشجار المثمرة، وذبح الشاة والبقرة والبعير، إلا ما يحتاج إليه الطعام، وهكذا تتعاظم الروح الإنسانية بأوفر عناصرها في معاملة الأعداء، في ملاحم القتال وساحات الحروب.

وازن كذلك بين ما فعله المسلمون مع أعدائهم، "وما ارتكبه الفرنسيون في الجزائر من تعذيب وجرائم لأبناء هذا الشعب البطل؛ لأنهم طالبوا بالحرية والاستقلال وطرد المغتصبين لبلادهم، المتمتعين بخيراتها، وتحرير وطنهم من الفرنسيين والأجانب المعتدين على قتل الأبرياء من عرب الجزائر، المستغلين لها، لقد عذبوهم بكل ألوان التعذيب، وقتلوهم من غير ذنب، وسجنوهم من غير جريمة، ونفوهم من أرضهم، ولم يفرقوا في التعذيب والقتل والسجن، بين كبير وصغير، وبين رجل وامرأة، وعذبوهم بطرق قاسية تدل على الإجرام والوحشية، في وقت يدعون فيه أنهم متمدنون، وأنهم حماة الحرية، والمدافعون عنها في العالم الحر، وهو في الواقع عالم الاستعمار والطغيان.

وازن بين كل ما يفعله الإسلام مع الأعداء، وما كان يفعله الإنجليز في عهد الاحتلال البريطاني لمصر من مذابح دنشواي، وقتل المتظاهرين من المصريين، الذين كانوا ينادون بحرية بلادهم

[1] - تاريخ دمشق لابن عساكر

واستقلالها، وسجن الوطنين، وتعذيبهم، وتشريدهم ونفيهم لا لسبب إلا المناداة بتحرير وطنهم من المستعمرين المستغلين المستبدين، المعتدين على الأبرياء"[1]

"وقبل ذلك كانت الغالبية العظمى من الدول الأوروبية الكاثوليكية، لا تطيق وجود البروتستانت داخل حدودها، وكان هؤلاء يعيشون على أعصابهم، مهددين في أي وقت بعمليات انتقامية وحشية تستهدف إبادتهم أو تضييق الخناق عليهم، على أمل حملهم آخر الأمر على اعتناق المذهب الكاثوليكي)[2]

كما لا ينسى التاريخ محاكم التفتيش الوحشية ضد المسلمين من قبل نصارى إسبانيا، وتاريخهم الدموي الشنيع، أما الإسلام فلم يؤثر في تاريخه أن أجبر قومًا على الدخول فيه كرهًا أو عنوة، كما فعل النصارى في نشر المسيحية، ولم يؤثر عن المسلمين أنهم اغتصبوا النساء، أو أحرقوا المدن، أو نهبوا الأموال، وقتلوا الشيوخ والصبيان.

وبعد.. فهذا ما عامل الإسلام به أعداءه، صورة راقية رائعة، نُقدمها لدعاة اليوم، حتى يعلموا أن الرفق واللين من معالم الدعوة الناجحة، لا يمكن تجاهلهما أو التغاضي عنهما، والغفلة عن ثمارهما، والدعوة لا تستطيع أن تؤتي أكلها، إلا إذا أحاطها الدعاة بسياج من الحب، يغلبون به حقد مخالفيهم وقسوة أعدائهم.

فهل من إشارة؟ وإن شئت فقل رسالة؟

نعم لقد وصفنا الله تعالى بأنا نحب غيرنا من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، مع بغضهم لنا، حين قال: (هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)[3]

وليس معنى حبنا لهم أن نتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وإنما نحب هدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصواب، ونبصرهم بما يضمره الشيطان، فينقلبوا إلى الحق ويستنيروا بنور الإيمان، وإذا كانت قلوبنا تحب هداية من أشرك وكفر، وتشفق عليه من غضب الله، أليس من الأولى أن يكون هذا

[1] - روح الإسلام - محمد عطية الإبراشي
[2]-أوروبا في مطلع العصور الحديثة- د. عبد العزيز الشناوي.
[3]- آل عمران :119

الشعور للمذنبين من أهل الإسلام، الذين تسكن قلوبهم بواعث الإيمان، فتبحث فقط عمن يحرك كوامنها؟!

الحوار الهادئ في وجه العاصفة

اخفض جناحك لمن حولك أيها الداعية.. الكبير والصغير، القوي والضعيف، الغني والفقير، تواضع لكل الناس، ولا تتكبر عليهم أو تستعلي، عاملهم بلطف وحاورهم بأدب، فسليمان عليه السلام أعطاه الله مُلك الدنيا، والذي لا ينبغي لأحد من بعده، وبرغم هذا، أصغى للطائر الضئيل الضعيف الذي خاطبه بجرأة كبيرة.. وتقبل سليمان حديثه بتواضع جم، وتفكير حكيم، قال تعالى:

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)[1]

تحاور بعقلك لا بعاطفتك، أطلق له العنان ليرى ما لا يراه غيرك، حاور خصومك بدفء ورفق، وليكن صدرك وسيعًا يستوعبهم مهما ضاقت صدورهم، اجعل من بسمتك في وجوههم، سحرًا يبدد عواصف الغضب في نفوسهم.

إن إدارة الحوار.. تستدعي مهارة وفنًا في التعامل، حتى تستطيع حُجتك أن تبذ حجج المخالفين، وأولى هذه المهارات، أن تتعلم كيف تَقبل الآخر، وتتقن فن الاستماع، وتُقبل على المتحدث بعناية واهتمام مهما كان مخطئًا، ولا يغيب عنك أبدًا أن الله تعالى قد استمع إلى الملعون إبليس، قال تعالى:

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)[2]

إن الدعاة الهداة.. لا يجب أبداً أن يقابلوا العنف بالعنف، والقسوة بالقسوة، وإلا فلن تجد الدعوة في صدور الناس ركناً تستقر فيه.. لقد تطاول المشركون من قوم هود عليه حين دعاهم لنبذ الأصنام وعبادة الله الواحد، قال تعالى:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)[1]

[1]- النمل: 22

[2]- الحجر :23-38

إنه خاطبهم بقوله: "يا قوم" وهو خطاب أدعى إلى استجابتهم وإشعارهم بأن من يخاطبهم هو منهم في النسب، ويريد الخير لهم، كما تجدر الإشارة إلى وصف الحق تعالى لمجيئه إياهم بقوله: "أخاهم "وفيها من معاني البر والقربى والتودد.

وكان رد القوم جائراً مؤلماً (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)[2]

لقد تطاولوا وأساؤوا الأدب، اتهموه بالسفاهة والكذب، أما هو فقابل كل هذا العدوان، بسماحة نفس وعفو كريم.. (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[3]

والموقف يبعث في وعينا، أن حياة الدعوة ومستقبلها، لا يستقيم أبدًا مع التمكين لرغبات النفس وحظوظها في الانتقام والثأر.. فلقد ضرب الحق تعالى لنبيه ﷺ مثلًا بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي رد عنف أباه بلطف ورفق، ولم يستدرجه الغضب لقولةٍ شديدة أو لفظةٍ صادمة.. لقد وجه نصيحته بقوله:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)[4]

إن نفسه بعيدة عن الهوان مهما أصابها من هوان، وقد رصد القرآن الكريم وسجل أدبه العالي مع أبيه، حينما صدّر كل نصيحة موجهة له بالإجلال والاحترام في قوله:(يَا أَبَتِ) مستعطفًا متوسلًا.

يقول صاحب (الكشاف):

---

[1]- الأعراف: 65

[2]- الأعراف: 66

[3]- الأعراف: 67-69

[4]- مريم: 42-45

"انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، وذلك أنه طلب منه - أولًا - العلة في خطئه، طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه، حيث بَعّدَ ما ليس به حس ولا شعور.. ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفِّقًا به متلطفًا، فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك، ثم ثلث بتشبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة، وما يجره ما هم فيه من الوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: (إني أخاف أن يمسك)، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: (يا أبت) توسلًا واستعطافًا"[1]

ويأتي (آزر) تعلوه حُمرة الغضب، وينذر بالويل والثبور وعظائم الأمور:

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)[2]

إنه الرجم إذن والهجر.. كلمات مثيرة للنفس، تبعث على الثورة مهما كان قائلها.

ولكن إبراهيم يتعالى على حظوظ النفس؛ فيقابل التهديد والوعيد بالرفق والشفقة..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)[3]

"والقرآن الكريم مليء بالنداءات الاستعطافية، لتشويق السامع لتقبل الحق واستثارة مشاعره، في أنه إنسان معتبر ذو شخصية، وذو كرامة، وذو اهتمام ولا شك أن هذا الأسلوب الذي علمنا القرآن إياه له إيحاءاته المؤثرة على المشاعر، وتأثيره البالغ على القلوب"[4]

إن دعاةً نعرفهم يفتعلون المعارك، ويؤججون العواصف، ويدعون زورًا أنها غضبة لله، وما هي إلا ضغائن نفس لم تتطهر، وسوء فهم ونقص مركب، فالصبر على جهالات الناس وامتصاص غرورهم وسفههم، ليس ذِلة بقدر ما هو تمكين للدعوة، وانتصار للحق.

---

[1]- تفسير الكشاف ج3ص19.

[2]- مريم: 46

[3]- مريم: 47

[4]- مواقف الداعية التعبيرية – عبد الله ناصح علوان - بتصرف

يقول الحق تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ، قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ، قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)[1]

إن الإعراض عن الرسل، بلغ حد الإنكار والتطاول ووصفهم بالكذب والضلال، لكن رد الرسل عليهم كان حكيمًا هادئًا، أما القوم فأوغلوا في الخصومة والقبح، وردوا على الهدوء واللين بقسوة غاشمة فقالوا: (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُم وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2]

أي "إننا نتشاءم منكم، ونتوقع الشر في دعوتكم، فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم، ولن ندعكم في دعوتكم: لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم.. وهكذا أسفر الباطل عن غَشمهِ، وأطلق على الهداة تهديده، وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير"[3]

فماذا وكيف وبم رد عليهم الرسل؟ إنهم لم يستثرهم عنف القوم ليقابلوه بعنف مثله.. وإنما تحملوا إنكارهم وجحودهم، وصبروا على الغباء الغشوم.

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)[4]

إن الرسل كانوا حكماء فلم يقابلا السفاهة بسفاهة مثلها، وإنما كان عقلهم الرشيد وحكمتهم البالغة، مؤكدين أنهم رسل الله وأنهم صادقون في دعواهم غير كاذبين.. ولما شاع أمرهم وصدر التهديد والوعيد.

أسرع رجل من أقصى المدينة، ينصح قومه وينهاهم عن إيذاء الرسل، ويحثهم على اتباعهم، وهو نموذج للناصح الأمين.. "ويأتي التعبير بقوله: (يسعى) ليدل على صفاء نفسه، وسلامة قلبه، وعلو همته، ومضاء عزيمته، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه، من أبعد مكان في المدينة، ليعلن

[1]- يس : 13-19
[2]- يس : 18
[3]-في ظلال القرآن - سيد قطب.
[4]- يس : 19

أمام الجميع كلمة الحق، ولم يرتض أن يقبع في بيته – كما يفعل الكثيرون – بل هرول نحو قومه، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[1]

ورغم هذا الإعراض السافر.. قتلوا الرجل فأهلكهم الله تعالى، ولما قتلوه نال الشهادة وبُشِّر بالجنة، وهنا يضرب لنا درسًا عظيمًا في سماحة النفس ومقابلة الإيذاء بالحب والخير والإحسان.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)[2]

حتى بعد دخوله الجنة واستقراره في النعيم، مازال يُفكر في قومه ويرجو هدايتهم، ولو كان غيره ممن نقصدهم في مكانه لقال: الحمد لله الذي نجاني بإيماني وأهلكهم بكفرهم، أما هو فيُعلِّم الدعاة بما قال، درسًا في الحب والشفقة على المدعوين، الذين هم من الكفار لا من المسلمين.!

فكيف بالمدعو وهو مسلم موحد بالله؟!

"وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف فى افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به، والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام؟"[3]

أعينوهم واردعوا الشيطان

يقول تعالى: (إنما المؤمنون أخوة) وهذه الأخوة لا يختص بها الطائعين وحدهم وإنما يسبقهم فيها العاصون الغافلون، فهم أولى بها حينما فقدوا من يعينهم على طريق العودة، ولعمري ليس لهم من منقذ إلا عُرى الأخوة التي هي أوجب اليوم أن نلتزم بها حيالهم.

وتأمل أخي الداعية هذه الترنيمات التي خطها لنا شيخنا الجليل الدكتور (محمود عمارة) بقوله:

"يخطف الشيطان الخطفة، ثم يخنس هاربًا، والخطفة هنا هي أخ لنا في الله نزغه فمضى معه في الأرض حيران، فأين الشهاب الثاقب؟! أين نحن من هذا الغافل الذاهل القابع في الكهف المظلم؟ لا يجمل بنا أن نقف مكتوفي الأيدي، بل لابد أن نقف إلى جانبه، ردعًا للشيطان، وعودًا بالتائب إلى العش

[1]- المصدر السابق.
[2]- يس: 26-27
[3]- الكشاف للزمخشري

المهجور، إنها إذن معركتنا اليومية مع الشيطان، الذي ينشب أظفاره في عنق الفريسة، والفريسة واحد منا، فلنشمر عن ذراع في محاولة لإنقاذه، في هجمة مضمونة النتائج.."

وقال: "يا أيها الباطل.. لا يخدعك ذلك الانتصار، فإنما مصير صرح الرمل أن ينهار، وما تطول صولة لليل.. إلا وبعدها يطأطئ الجبين للنهار.. إن الخالق سبحانه وتعالى يعامل بقانون الرحمة فوق العدل، فلماذا لا يكون المخلوق كذلك؟ لقد غضب الكون كله يومًا على الإنسان، فقالت الأرض: ائذن لي أن أخسف به فقد طعم خيرك ومنع شكرك، وقالت السماء والبحر والجبال مثل ذلك.. فقال سبحانه وتعالى: اتركوه، فإنكم لم تخلقوه، ولو خلقتموه لرحمتموه، اتركوا العصاة فإن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، وكأنما يقول الكون بلسان الحال: إن الإنسان لكنود. غادر.. خائن يأكل خيرك، ثم يشكر غيرك.. ولكن الرحمن الرحيم يقطع على الكون أمانيه.. وإذا قسا الكون على الإنسان فكيف تقسو أنت أيها الإنسان، وأنت والد العاصي، أو أخوه، أو جاره أو صديقه؟

إن روح الإسلام لترفض التشفي، وبنفس القوة تفتح طريق العودة للراغبين، إن إبليس وجنوده ليسرهم أن تُجهز على الضحية ليكسب هو القضية، ومن التقوى أن نخف لنجدة العاصي حتى لا يكون سلاحًا في يد الشيطان يشهره في وجوهنا".

روى أنس ﷺ: (كان فتى من الأنصار يصلي خلف رسول الله ﷺ، ثم لا يدع شيئًا من الفواحش إلا ارتكبه، فوصف للنبي ﷺ حاله فقال: "إن صلاته ستنهاه" فلم يلبث أن تاب وحسن حاله.)[1]

إن الفتى يعيش في تناقض كبير! فكيف يصر على المعصية، وفي ذات الوقت يصطف خلف الرسول ﷺ ؟، وهو تباين أفزع الصحابة، فهرعوا يخبرون الرسول ﷺ بالأمر، وهو إخبار لاشك من باب الحرص على الفتى، حتى يجد الرسول له علاجًا يشفيه مما يشقيه، ثم إنه في جملته حرص على المجتمع المسلم الناهض، أن تصرعه الشهوات في فرد منه.. إن الصحابة -رضوان الله عليهم- يدركون شؤم المعصية، ورأوها خطرًا يهدد فردًا منهم، فماذا فعلوا إذن؟، إنهم ما عزلوه ولا نهروه ولا حطموه

[1]- تفسير أبو السعود

باللوم والتقريع، وما كان إخبارهم للنبي ﷺ إلا لينقذ المبتلى من مأساة التناقض، وينتشله من وحل المعصية.

لقد أذنب واحد منا ذنباً ضاق له صدره، وأحال الحياة في مقلتيه سواداً قاتماً.. ويسرع إلى النبي ﷺ يريد تطهير نفسه والتكفير عن خطئه، فهل يصح أن نعد هؤلاء المحزونين مجرمين ننكل بهم ونهدم رجاءهم؟

إن رسولنا الكريم ﷺ لم يكن يوماً محققاً يحاصر الجاني بالقرائن الدالة على جرمه، ولكنه كان المربي الحصيف الذي يعلم أصحابه بقوله: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم ليعثر ويده بيد الرحمن)[1]

"وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما راجع المقرين بالحدود وأعطاهم فرصة الفكاك منها، وإنك إذ تتصور هذه الفتاة التي أسموها الغامدية، وقد جاءت تطلب الرجم وهي حامل، فلما أُرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها رضيعها، فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها وليدها يسعى وبيده قطعة خبز، أتحسب الرسول ﷺ كان يترك هذه الفتاة ليسيء بتركها إلى المجتمع؟

كلا إنها التوبة من الخطيئة تسعى على قدمين..إنها تشبه أن تكون ملكًا كريمًا لا بغيًا ملوثة"[2]

بعض الدعاة يضج صارخاً في وجه الغافلين، حينما لا يعبؤون بأمره ولا يلتفتون لنصحه، ذلك بأنهم كما قيل:(يركزون على الحكم، ثم غابت عنهم الحكمة).. تلك الحكمة التي تسوقهم أولا، ليعينوا العاصي على نفسه، فتنجو من حبائل الشيطان، وتتحرر من كل قيد يأسرها عن حريتها نحو الإيمان، فإن فعلنا، نكون قد ألبسنا دعوتنا ثوب الحكمة ووصلنا بالعُصَاة لبر الأمان.

يجب أن تكون بصيرتنا نافذة، وعقولنا حاضرة، فالدعوة لم تُبن على العضلات والغلبة على الآخرين، وإنما حظ العقل فيها وافر بنصيب كبير، ومن ثم، يجب أن ندرك دومًا ما علمنا إياه شيوخنا حين قالوا:

---

[1]- أنظر صحيح الجامع1185.

[2]- من هنا نعلم – الشيخ الغزالي.

"إن في كيان أفجر الناس عنصر الخير، يرقد هناك في أعماقه، وكأنما هو فص الماس، لكنه بين الصخور، صخور الشهوة والتقاليد، يحتاج فقط إلى اليد الصانعة القادرة على الوصول إليه والتقاطه، ثم وصله بالحياة".

وفي سبب إسلام خالد ﷺ ما يُلهمنا هذا المعنى، فقد أرسل له الوليد أخوه رسالة يحثه فيها على الدخول في الإسلام، يقول فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟! وقد سألني رسول الله ﷺ عنك، وقال: "أين خالد؟" فقلت: يأتي الله به. فقال: "ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيرا له، ولقدمناه على غيره". فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، فقد فاتك مواطن صالحة.. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني)[1]

إن (الوليد) وهو الداعية الحكيم، استطاع أن يُؤجج بحكمته بواعث الرغبة في نفس أخيه تجاه الإسلام، الذي كان عدوًا له بالأمس القريب، وكان خالد سبب الهزيمة الوحيدة في تاريخ العهد النبوي.

وحول ذكاء الداعية نتأمل مايلي:

1 – لقد أثار الوليد في نفس أخيه موهبته العقلية، لتستعيد قدرتها على التفكير مرة أخرى بعد أن تعطلت بفعل العصبية والموروثات الجاهلية، كما لا يخفى ما فيها من المدح والإشادة بسداد التفكير والاختيار.

2 – نقل إليه أن القائد الأعلى يذكره ويسأل عنه، بل امتدح عقله وقدرته على التمييز، متعجبًا أن يكون مثله جهل الإسلام، وهو تلميح بأن له مكانة خاصة في نفس الزعيم الأكبر ليست لدى غيره من الناس.

[1]- البداية والنهاية لابن كثير 239/4

3-انظر لمعاني الرفق والعطف والعزف على وتر الرحم والقرابة، التي استخدمها الوليد في خطابه لأخيه، حيث يقول له: "يا أخي"، أي أنت أخي الذي أحرص عليه رغم كفره رجاء هدايته.

وروى :"أن رجلًا من أشراف البصرة كان منحدرًا إليها في سفينة ومعه جارية له، فشرب يومًا وغنته جاريته بعود لها، وكان معهم في السفينة فتىً فقير صالح، فقال له: يا فتى تحسن مثل هذا؟ قال: أحسن ما هو أحسن منه، وكان الفقير حسن الصوت فاستفتح وقرأ: (... قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ، أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ..."[1] فرمى الرجل ما بيده من الشراب وقال: أشهد أن هذا أحسن مما سمعت، فهل غير هذا؟ قال: نعم فتلا عليه:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)[2] فوقعت في قلبه موقعًا، ورمى بالشراب في الماء وكسر العود، ثم قال: يا فتى هل هاهنا فرج؟ قال: نعم. (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهَّ إِنَّ اللهَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[3] فصاح صيحة عظيمة، فنظروا إليه فإذا هو قد مات "[4]

لله در شبابنا لو جعلوا من هذا الفتى قدوة لهم، فيحيلون الموعظة سبيلًا إلى القلوب المغلقة، كان بإمكان الفتى الحكيم أن يصيح في وجه الرجل وجاريته، وينطلق بحماسة تسابق الريح، لتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيحطم العود والكأس، لكنه يدرك بما وُهب من حكمةٍ، أن العنف لا يهدي النفوس أو يستميل الصدور للحق، وأن القسوة لا تغلب شطط المعصية أو تلجم جموح الهوى، إن الفتى المعلم، سلك طريق الرفق واللين، فكانت النتيجة أن صحا الرجل من غفلته واستيقظ ضميره، وتوهجت في أعماقه بوارق الإيمان، فإذا به يطلب المزيد من النصح والهداية ، التي انطلقت بقوةٍ لتُهيمن على مشاعر الرجل ووجدانه.!

---

[1]- النساء: 77-78
[2]- الكهف: 29
[3]- الزمر: 53
[4]- الواحدي في كتاب قتلى القرآن

فماذا يضيرنا إذن لو بحثنا عن عناصر الخير الكامنة في نفوس العصاة، لنجعل منها نقطة التحول في حياتهم.؟

ومما قيل في وصف المشهد: "إن المذنب يعيش لحظة المعصية بأعضائه المتشبثة بالخمر، أو مطارحة الهوى، أو أحاديث المجون، بينما ضميره هناك غافل مستكين.. فما العمل، والجسم كله غارق في المتعة الحرام، والضمير، ذلك الحارس قد غلبه النعاس، قد سقط سلاحه؟ إن واجبنا أن نوقظ الحارس، ليصحو، ثم يباشر سلطة الرقابة والمتابعة، نوقظه بالكلمة الهادية، أو السكوت المترقب، حتى إذا صحا النائم يومًا، انتهت مهمتنا، بعد أن تركنا ضمير العاصي يصفي حسابه معه، في محاكمة ذاتية لا يشعر معها بضغط خارجي منا قد يجيء بنتائج عكسية."

إن البحث عن مكامن الخير في نفوس العصاة والشاردين لا يدل على حكمتنا فقط، بقدر ما يدل على عمار قلوبنا بالحب والشفقة، ويَهدِر صاحب الظلال في أفراح الروح ببيانه حديثاً خطيرا، لا يجب التغاضي عن قراءته ومعايشته وتأمله فيقول:

"عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير، نعفى أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة، إننا لن نكون في حاجة إلى أن نتملق الآخرين، لأننا سنكون يومئذ صادقين مخلصين إذ نزجي إليهم الثناء، إننا سنكشف في نفوسهم عن كنوز من الخير وسنجد لهم مزايا طيبة نثنى عليها حين نثنى ونحن صادقون، ولن يعدم إنسان ناحية خيرة، أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة، ولكننا لا نطلع عليها، ولا نراها إلا حين تنمو في نفوسنا بذرة الحب، كذلك لن نكون في حاجة لأن نحمِّل أنفسنا مؤونة التضايق منهم، ولا حتى مؤونة الصبر على أخطائهم وحماقاتهم؛ لأننا سنعطف على مواضع الضعف والنقص، ولن نفتش عليها لنراها يوم تنمو في نفوسنا بذرة العطف، وبطبيعة الحال لن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم، أو عبء الحذر منهم، فإنما نحقد على الآخرين، لأن بذرة الخير لم تلتئم في نفوسنا نموًا كافياً، ونتخوف منهم لأن عنصر الثقة في الخير ينقصنا، كم نمنح أنفسنا من الطمأنينة والراحة والسعادة، حين نمنح الآخرين عطفنا وحبنا وثقتنا، يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف والخير".

ألا وإن الخبرة بالدعوة والمدعويين، لتؤكد أن الكلمة الطيبة تبقى حاضرة في النفس كبذرة، لا تورق ولا تثمر، حتى تحين اللحظة المناسبة، وتستعد التربة ويسمح الجو، فتنبت من كل زوج بهيج، وكي يتحقق ذلك لابد للداعية من نداء متواصل يستنهض به هذه البذرة، بعد أن يهيئ لها المناخ الملائم، بموعظته الرقيقة التي تذيب ثلوج اليأس في نفوس المذنبين.

إن كل إنسان عصى الله تعالى علينا أن نصبر عليه، ونحسن به الظن، ولا نبادر باغتياله والقضاء عليه، فلربما ألـمَّت به ظروف كانت أقوى منه، ساقته ليقترف ذلك الذنب، وهو فوق هذا، بشر يُصيب ويخطئ، ويُطيع ويعصي.

وإذا كنا نطالب الناس أن ينظروا للدعاة على أنهم بشر، وليسوا ملائكة معصومين، فيغفروا زلاتهم، ويقيلوا عثراتهم، فأولى بالدعاة أن يعكسوا نفس النظرة على من حولهم، ويدركون أن دعوتهم، إنما هي بذور الخير التي تستقر في نفوس العصاة، ولولا هذه البذور الكامنة، لم يكن للدعوة أن تحقق نتائجها الإيجابية.

إن شيخنا (القرضاوي) يُقدم نُصحه لشباب الدعوة، ويعلمهم كيف ينظرون للناس من حولهم؟ فيقول:

"وأنصح أبنائي الشباب، أن يخلعوا منظارهم الأسود، عندما ينظرون إلى الناس، وأن يفترضوا الخير في عباده، ويقدموا حسن الظن، وأن يعلموا أن الأصل هو البراءة، وحَمْل حال أهل الإسلام على الخير"[1]

إن رحمة الضعف البشري، وإقالة العثرات، وإعطاء فرصة للتوبة، سمات أكيدة للداعية المسلم، لا يعرض عنها أو يغفلها، وقد تكون هناك ظروف لا نعلمها، هي التي دفعت صاحبها كرها لاقتراف المعصية، فهل يتساوى المكره المجبر، بذلك الذي سعى للخطيئة يقوده هواه وتجره شهواته؟

جاءت امرأة إلى عمر ﷺ وقد أقرت على نفسها بالزنا، فلما أراد أن يرجمها، قال علي لعل بها عذرًا، ثم قال لها: ما حملك على الزنا؟ قالت: كان لي خليط وفي إبله ماء ولبن، ولم يكن في إبلي ماء ولبن، فظمئت فاستسقيته، فأبى أن يسقيني حتى أعطيه نفسي، فأبيت عليه ثلاثًا، فلما ظمئت وظننت أن

[1]- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف - د. يوسف القرضاوي.

نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد فسقاني، فقال علي: (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1]

لم تجد المرأة المسكينة بُداً من الاستجابة لرغبة هذا الطامع المبتز.. إنها الآن تواجه الموت الذي دفعها لتمكينه من شرفها مجبرة مضطرة.. وكما يقول قائل: إذا كانت الحرة لا تأكل بثدييها، فإن الموقف هنا مختلفًا.

إن المسيح عليه السلام، تراخى في رجم امرأة متهمة، وقال قولته الشهيرة للكهنة المرائين:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها.!"

لقد فعل ذلك ليس إقرارًا للجريمة، وإنما ليفتح الطريق الذي أوصده الجاهلون من جديد أمام المذنبين، "إنها كلمة تنبجس من نفس الينبوع الذي جعل نبينا ﷺ يراجع المقر بخطيئته، ويُلقنه العودة عن إقراره! إن اليهود ينطوون على أمراض نفسية عفنة، ثم يتظاهرون بالغيرة على صور التدين، والنقمة على أخطاء العاثرين، والحق أن هناك جماهير من المتدينين على حظ كبير من تحجر العاطفة، والرغبة في البطش، والشماتة في المخطئين، وهذا كله ناشيء عن اضطراب الصلة بالله والفقه في دينه"[2].

ولله در القائل[3]:

هو من يبتدئ الخلق ** وهم من يخلقون الشائعات

هو من يعفو عن خطايانا ** وهم لا يغفرون الحسنات

ويُسطر لنا (دراز) رحمه الله في كنوزه، ما ينبغي تأمله وتعلمه، لنفرق بين أحوال العصاة، وكيف نعامل كل بحالته؟ حيث يقول: " إن ظُلمة الهوى لا تطفئ في قلب المؤمن نور الهدى، وإنما تزاحمه وتغلبه، فيبقى ذابلًا ضعيفًا.. فمثل المؤمن حين يعصى.. كمثل رجل نهاه الطبيب عن طعام أو شراب خاص، وهو يعلم صحة رأي الطبيب، ويثق بنصحه له، وقد يعرف في نفسه وخامة عاقبة التسرع بتناول الطعام الذي نهاه عنه، ولكنه لا يجد صبرًا على ذلك، فتضعف إرادته عن مقاومة

[1]- البقرة: 173
[2]- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل. الشيخ- محمد الغزالي
[3]- الشاعر أحمد مطر.

هواه، ومثل الكافر يعصى، كمثل ذلك الذي يعصى الطبيب، متجهلًا مستهزئًا برأيه، أترى أن الطبيب يعامل المريض بنوع واحد من القسوة، أو يُنزلهما عنده بمنزلة واحدة من البغض والمقت؟ أم هو يرثي لأحدهما ما لا يرثي للآخر؟"[1]

إذن لا يجب أن تساوي بين الحالتين، حالة العاصي النادم، وحالة المبتدع الضال، فهذا نادم على زلته وذاك مصر على معصيته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :" ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها، ومعنى قولهم أن البدعة لا يُتاب منها، أن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ولا رسوله، قد زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب، أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسنًا، وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب" [2]

ويقول ابن القيم رحمه الله كلاماً دقيقاً واضحاً:

"ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على الناس، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ، والعاصي ليس كذلك، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه"[3]

لا تهجروا العصاة

هناك من يطالب بعزل العصاة وهجرهم، ولا يُعامل إلا الصفوة من المتدينين، وهو خطأ كبير؛ فالصواب يكون في مباشرتهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومحاولة إثارة عواطفهم الكامنة

[1]- من كنوز السنة للعلامة الكبير- د. محمد عبد الله دراز: 66:65
[2]- (مجموع الفتاوى 9/10).
[3]- الجواب الكافي (101/1).

في الاتجاه الصحيح، ليكونوا بعدها شعلة متقدة في خدمة الإسلام، وفي حياة العصاة نجد منهم من ضعف أمام شهوته، لكنه في الوقت نفسه يحب الله ورسوله، فكيف نهجره ونعزله من حياتنا؟!

وقد كان هناك من يُكرر شرب الخمر، فيحدّه الرسول ﷺ على ذلك كل مرة، ومع ذلك لم يفصله ولم يهجره، بل كان يمازح الرسول ﷺ ويضاحكه ويجالسه في المسجد، فما تضايق منه، وما اعتزله، وما تجاهله، ولما ضاق بعض الأصحاب من كثرة شُربه، وإقامة الحد عليه.. لعنوه، ولكن الرسول ﷺ يغضب لذلك ويزجرهم، ويشهد له بحب الله ورسوله.

إن الداعية الحصيف، من يغتنم حالة المذنب وعواطفه وطاقاته، لينصر فيه معالم الإيمان، لتنتقل به من ساحة المعصية إلى ساحات الطاعة والعمل للدين، وينتشله من مستنقعات الرذيلة، إلى رحاب الفضيلة، لا أن يهجره ويعتزله، ليكون فريسة للشيطان، كثير من العصاة تَغلي في وجدانهم آلام الحسرة والأسى على ما يقترفون، ويرون أنفسهم هذا الغريق الذي لا يجد من يُغيثه، ولكن كثيرًا من الأعين، لا تبصر غير هذا المارد الجبار الذي يعصى ويتجبر، ولو أنها شقَّت عن قلبه، لربما رأت فيه ما يدعوها للعطف عليه، والأخذ بيديه، وكم يتمنى كثير منهم أن يخلع عن نفسه ثوب المعصية، ويتزيا بالطاعة، ويؤوب إلى ربه تعالى، ويكاد يقتله الحزن الكثيف حينما يرى أحد الطائعين، فيتمنى أن لو صار مثله يومًا من الأيام، إنها صولة الطاعة، ويقظة الإيمان الخامدة في النفوس، والتي تحتاج إلى من ينقب عنها، ويُثير حماسها من جديد.

تمامًا كما تأججت في نفس (أبي محجن الثقفي) يوم القادسية ورأي نفسه محبوسًا في القيد، والخيول تحوم حوله، والرجال يجاهدون في الميدان دونه، فأخذ يردد:

كفى حَزَنًا أن تُطعَنَ الخيلُ بالقَنا * وأُصبِحَ مَشدودًا عليَّ وَثَاقيا

إذا قُمتَ عَنّاني الحديدُ وأُغلِقَت * مَصارعُ من دوني تُصِمُّ المُناديا

وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ * فأصبحتُ منهم واحدًا لا أخا ليا

فإن مُتُّ كانت حاجةً قد قَضيتُها * وخَلّفتُ سَعدًا وحدَه والأمانيا

فللّه درِّي يوم أُترَكُ مُوثَقًا * وتذهلُ عني أُسرتي ورجاليا

حبيسًا عن الحرب العَوَان وقد بَدت * وإعمالُ غيري يوم ذاك العواليا

ولله عهدٌ لا أخيسُ بعهدِه * لئن فُرِجَت أن لا أزور الحوانيا

هَلُمَّ سلاحي لا أبا لكَ إنني * أرى الحربَ لا تزدادُ إلا تماديا

إن عزيمته لم ترضَ أن تكون أسيرة كلمات قالها يرثي بها حاله، وإنما أخذ يترجى زوجة (سعد) ويحايلها حتى تفك وثاقة، فينال شرف الجهاد ويكفر عن خطيئته وينيب إلى ربه، ففكت وثاقة وامتطى (البلقاء) فرس سعد وانطلق للمعركة، فمال على العدو ميلة عظيمة، وأخذت منهم ضرباته مآخذ غائرة، حتى قال سعد وهو يراقب من بعيد: "الصبر صبر البلقاء، والظفر ظفر أبي محجن، وأبو محجن في القيد.!" فلما هزم العدو ورجع (أبو محجن) حتى وضع رجليه في القيد، فأخبرت ابنته حفصة سعدًا بما كان من الأمر، فقال سعد: (لا والله لا أضرب اليوم رجلًا أبلى للمسلمين ما أبلاهم)، فخلِ سبيله، فقال أبو محجن: "قد كنت أشربها إذ يقام علي الحد وأطهر منها، فأما إذا أنقذتني وتركتني، فو الله لا أشربها أبدًا".

أرأيت بماذا أقسم؟ لقد أقسم بالبراءة من علته، التي كانت تفسد عليه دينه وطاعته، ولكن من أشعل هذا الحماس الكبير؟ إنها رقة الداعية، وحنان القائد، الذي استطاع أن يضرب على الوتر الحساس، ويغتنم العاطفة التي توهجت، ليخرج بهذه النتيجة العظيمة، أما الذين يحتجون بهجر الثلاثة الذين خلفوا ليكون مسلكنا مع كل العصاة، فنقول لهم:

إنه استدلال خاص بزمانه ومكانه وحاله، والعبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، ذلك لأن هذا الهجر لم يحدث إلا لهم، رغم وجود من هم أشد منهم ذنبًا بالمدينة، بل هناك المنافقون الذين لم يهجرهم رسول الله ﷺ، كما لم يحدث هذا الهجر لأهل المعصية في حياة الخلفاء الراشدين المهديين.

وانظر إلى ما فعله (حاطب ابن أبي بلتعة)، وإخباره للمشركين بنبأ الفتح، لقد كتب إليهم سرًا بعدد الجيش والعتاد، ومع هذا الذنب الخطير الذي نُعده اليوم (خيانة عظمى) لم يهجره الرسول ﷺ وصحابته، وجريمة الثلاثة الذين خُلفوا أقل خطرًا من جريمة حاطب.!

معاول هدم أم دعاة دين!

دعاة يبذرون الكراهية

غايتي أن أرى الناس جميعًا قد ظللتهم سحابة الإيمان، وانضوت قلوبهم قبل جوارحهم تحت مراد الله تعالى.. أملي.. أن أرى المساجد عامرة، فالكل يعرف ربه مخلصًا ذاكرًا خاشعًا، رجائي أن تزول الحُجب من عقول الناس، وتنزوي الغشاوة من أفهامهم، فتنشرح صدورهم لربهم يعبدونه قانتين مخبتين.

ولكن.. ما بال هؤلاء الدعاة يُحيلون حياة الدعوة جحيمًا، فيُنبتون الصراعات، ويفتعلون الأزمات، إنهم لا يدعون بالحسنى بقدر ما يكيلون التهم ويصدرون الأحكام، فيفسقون الناس تارة، ويكفرونهم تارة أخرى، إن المآسي التي أوجدها هؤلاء في ساحة الدعوة، تفرض علينا أن نؤكد على سمات هذا الميدان الذي لا يخوضه إلا من طهّر نفسه وهزم آفاته، وتعالى على أمراضه النفسية، فهذه الرزايا لا تُثمر دعوة أو تصلح غافلًا، وتأمل هنا مسحة من هدي النبوة، فعن ابن عباس ﷺقال: "ما قاتل رسول الله قوماً حتى دعاهم"[1]

وعن عبد الرحمن بن معاذ ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال: "تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبّ إلي من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم"[2]

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: "بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ إلى قوم يقاتلهم، ثم بعث إليه رجلًا فقال: "لا تدعه من خلفه وقل له: تقاتلهم حتى تدعوهم"[3]

وفي رواية "ثم قال لرجل: الحق ولا تدعه من خلفه فقل: إن النبي ﷺ يأمرك أن تنتظره وقل له: لا تقاتل قومًا حتى تدعوهم".

---

[1]- رواه أحمد

[2]- أخرجه ابن عساكر

[3]- الطبراني في الأوسط.

وأخرج البيهقي عن أبي بن كعب ﷺ، قَالَ: أتي رسول الله ﷺ بأسارى من اللات والعزى، قال : فقال رسول اللهَّ ﷺ:"هل دعوهم إلى الإسلام ؟ فقالوا: لا، فقال لهم: هل دعوكم إلى الإسلام؟ فقالوا: لا، قال : خلوا سبيلهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هاتين الآيتين: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهَّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)[1]، (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهّ آلِهَةً أُخْرَى...)[2]

هكذا تكون نفسية الداعية، الذي يُعلن غايته الكبرى في هداية الناس، ورغبته القوية في إيمانهم، أما تصرفات الحمقى الذين جعلوا من طريق الدعوة مقصلة، يفجعون بها الناس، وينفثون عن سمومهم وأحقادهم، فإنهم ليسوا من الدعوة في شيء.

وفي فقه الردة، يتبدى لنا فهم الصحابة – رضي الله عنهم– فعن أنس ﷺقال: "بعثني أبو موسى بفتح تستر إلى عمر ﷺ فسألني عمر وكان ستة نفر من بني بكر بن وائل قد ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين، فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ قال: فأخذت في حديث آخر لأشغله عنهم فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ قلت: يا أمير المؤمنين قوم ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين، ما سبيلهم إلا القتل، فقال عمر: لأن أكون أخذتهم سلمًا أحب إلي مما طلعت عليه الشمس من صفراء أو بيضاء، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعًا بهم لو أخذتهم؟، قال: كنت عارضًا عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلا استودعتهم السجن"[3]

وروى ابن أبي شيبة "لما قدم على عمر فتح تستر –وتستر من أرض البصرة– سألهم: هل من مغربة؟ قالوا: رجل من المسلمين لحق بالمشركين فأخذناه، قال: ما صنعتم به؟ قالوا: قتلناه، قال: أفلا أدخلتموه بيتا وأغلقتم عليه باباً وأطعمتوه كل يوم رغيفاً ثم استتبتموه ثلاثا فإن تاب وإلا قتلتموه، ثم قال: اللهم لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذا بلغني"[4]

---

[1]- الأحزاب: 45-46

[2]- الأنعام:19

[3]- رواه عبد الرزاق وغيره بإسناد صحيح.

[4]- إسناده ضعيف، عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه

لماذا نولد الكراهية، ونوقد لهيب الخصومة، وعلى حساب من تكون العواقب؟، إن دعوتنا ما قامت إلا على الحب وما انتصرت إلا بالحب، وما دفع هذه الأمم صوب الإسلام إلا هذه العاطفة الجياشة التي جذبتهم للدعاة الأُول، إن فرحة الرسول ﷺ كانت غامرة حينما أسلمت (همدان) بعيدًا عن الدماء، وخر ساجدًا لله حين بعث إليه (عليٌ) بالنبأ، بل كان يلقى الكافر بالبِشْر والتبسم، كما فعل مع الحارث بن هشام.

ولما كان يوم الفتح دخل (الحارث بن هشام) و(عبد الله بن أبي ربيعة) على (أم هانئ بنت أبي طالب) فاستجارا بها، وقالا: نحن في جوارك، فأجارتهما، فدخل عليهما (علي بن أبي طالب) فنظر إليهما فشهر عليهما السيف، قالت: فألقيت عليهما فاعتنقته وقلت: تصنع هذا بي من بين الناس، لتبدأن بي قبلهما، قال: تجيرين المشركين؟ فخرج ولم يكد، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما لقيت من ابن أمي علي، ما كدت أفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين، فتفلت عليهما ليقتلهما، فقال رسول الله ﷺ: " ما كان ذلك له، قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت "، فرجعت إليهما فأخبرتهما فانصرفا إلى منازلهما . فقيل: يا رسول الله ﷺ ، (الحارث بن هشام) و(عبد الله بن أبي ربيعة) جالسان في ناديهما متفضلان في الملأ المزعفر، فقال رسول الله ﷺ: " لا سبيل إليهما، قد أمناهما "قال الحارث بن هشام: وجعلت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ، وأذكر رؤيته إياي في كل موطن موضعا مع المشركين، ثم أذكر بره ورحمته وصلته، فألقاه وهو داخل المسجد، فتلقاني بالبشر ووقف حتى جئته، فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق، فقال: " الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام " . قال الحارث بن هشام: فوالله ما رأيت مثل الإسلام جُهل، قال محمد بن عمر: وشهد الحارث بن هشام مع رسول الله ﷺ حنيناً ، وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل."[1]

إنها لطمةٌ لهواة العبوس وتقطيب الجبين، صرخة تندد بالمنفرين، وإذا كان الرسول ﷺ قد هش في وجه كافر رجاء هدايته التي كانت! فكيف لنا أن نعبس في وجه مسلم، قد تقلب البسمة حياته، ليصير من أهل الهداية والمعرفة؟

[1]- الطبقات الكبرى

الداعية الذي ننشده

إن الداعية الذي ننشده، رقيق القلب، واسع الصدر، لين الجانب، حاضر المشاعر، سهل المعاملة، هذه هي الصورة الزاهية للداعية المأمول، الذي ينهض برسالته ويُمكِّن لدينه.. فلا يعقل أن يكون الداعية جبارًا على الناس، أو قاسيًا على العصاة منهم؟! إن دعوته تتطلب أن يكون مأوىً لهم، يشعرون في جنبه بالراحة والطمأنينة، في غمار المادة الطاحنة، لابد للداعية أن يعي محنة العصاة، وأنهم أهل بلاء وداء، وقبل أن يهجم عليهم بقسوته وعنفه، عليه أن يفكر كيف ينقذهم مما وقعوا فيه؟ وأن يحمد الله تعالى أن جعله في طريقهم ليخلصهم وينقذهم، وأن يشكره سبحانه أنْ عافاه مما أصاب غيره من وحل المعاصي.

ومما ينسب لعيسى عليه السلام: "لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، إنما الناس رجلان، مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية"[1]

و كان سولنا ﷺ حذرًا في نصيحته، يخشى أن تجرح أحدهم، فإذا أراد أن يَنهىَ قال: "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا"[2]

وحينئذ يدرك المخطئون خطأهم، وتتحقق الدعوة كما أراد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، أما حينما يُغلظ الداعية في القول، ويثب على من يدعوهم بأنيابه، فيجرح شخوصهم، ويخصهم بأسمائهم، فإنه الإيذان بانتهاء الرحلة، وافتراق الطريق، ولن يستطيع بعدها أن يحاورهم، أو يخاطب لسانه لسانهم.

إن (يَكَن) عليه -رحمة الله- ندد بالقساة الغلاظ، ونفي عنهم ما تظاهروا به، وأكد أنهم معاول هدم لا دعاة دين، حينما قال:" أولم يسمع قساة القلوب وغلاظها، ممن يعملون على الساحة الإسلامية، وقد يكونون ممن يتصدرون صفوفها، ألم يسمع هؤلاء وأولئك ممن ابتلي بهم الإسلام، وممن انقلبوا إلى جلادين، شغلهم الشاغل مقاضاة الناس وإصدار الأحكام عليهم من غير حياء من الله ولا خجل؟ ألم يسمع هؤلاء صوت النبي محمد ﷺ يدعو إلى الرفق ويحذر من العنف؟ إن الساحة الإسلامية، تحتاج

[1]- الإمام الرباني عبد الله بن المبارك – الإمام عبد الحليم محمود- مطبوعات دار الشعب ص136.
[2]- رواه مسلم

اليوم وفي كل يوم إلى دعاة، والذين حرموا الرفق وجبلوا على الغلظة والعنف لا يمكن أن يكونوا يومًا دعاة، بل إن معاول هدمهم قد تكون أوقع من عوامل بناء الآخرين."[1]

" إن الذين يلجؤون إلى الشدة والقسوة دائماً ضعفاء، يشعرون بالضعف في ناحية من النواحي فيقصدون إلى الغلظة ؛ ظانين أنهم بتلك الطريقة يسترون ذلك الضعف، ويكملون ذلك النقص، مثلهم مثل الكلاب تنبح في الطرق، لا في ضوء النهار ، بل في ظلام الليل؛ كي تبحث عن فريسة تفترسها ، أو خيانة تخونها، أو طعام تسرقة هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم، ويفرحون لهفوات سواهم، وأمثال هؤلاء لا شخصية لهم، فأشخاصهم مكروهة، وأسماؤهم منبوذة وأفعالهم مسؤومة"[2]

وصدق الشاعر في قوله:

لو ألف بان خلفهم هادم كفى ** فكيف ببان خلفه ألف هادم؟!

وكان مما طالب به العلامة (القرضاوي) إدارة الأزهر في رسالته القيمة (الأزهر بين اليوم والأمس والغد)، أن يكون منهج الأزهر مع الناس، خاليًا من الاستعلاء أو المخاصمة.. إذ ينبغي أن تشعر الأجيال المسلمة بأُبوَّته لها، وحرصه عليها وفرحه بها، ينبغي أن تشعر بأنه معها لا عليها، فهو يأخذ بأيديها ويسدد خطواتها ويقيل عثراتها، ويساند تطلعاتها، ويخفف من غلوائها، وينوه بإيجابياتها، ويحذر من سلبياتها، بعلم وحكمة ورفق ولين..

ثم يصور لنا تصويراً رائعاً للشخصية المثلى التي يكون عليها (جيل النصر المنشود) فيقول: "يدعون إلى رسالتهم بالرفق واللين، وبالحكمة لا بالحماقة، ويجادلون بالتي هي أحسن، ينظرون إلى العصاة كما ينظر الطبيب إلى المرضى، لا كما ينظر الشرطي إلى اللصوص، لا يتهمون عاصيًا بالكفر، مخافة أن يرتد عليهم، ولا يقولون: هلك الناس، متهمين غيرهم، ومبرئين أنفسهم، ففي الحديث: "من قال هلك الناس فهو أهلكهم". غيورون على دينهم، متسامحون مع مخالفيهم، مؤمنون بفكرتهم في غير تعصب، معتدون برأيهم في غير عناد، فإذا كان رأيهم صوابًا يحتمل الخطأ فرأي غيرهم خطأ يحتمل

[1]- احذروا الإيدز الحركي - فتحي يكن. ط مؤسسة الرسالة
[2]- الشخصية – محمد عطية الإبراشي ط مكتبة الأسرة

الصواب، ومن يدري لعل رأيهم هو الخطأ بعينه، وحسبهم أنهم مجتهدون مأجورون، أصابوا أم أخطأوا"[1]

وقد أعجبني قول هذا المتأمل الحكيم:

"إذا أردت أن تحصل على العسل، فلا تحطم خلايا النحل، ونقول لبعض الدعاة: إذا أردتم أن تحصلوا على ثقة المدعوين، فلا تحطموهم، فإن أحكم الدعاة من يُقيم العوج، ولا يكسر المعوج، والذي يثبت في ذهن المدعو أنه ناصح، لا جارح، ومن المؤسف أن تجد أحيانًا دعاة لا يرحمون الناس، ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل على غيرهم، بل ما أكثر اللوم النازل على دعاة حكماء معتدلين من قبل متحمسين، يريدونها نارًا حامية تأكل الأخضر واليابس، إنهم يرون اللين والاعتدال في مخاطبة العصاة جرمًا، وهكذا الجسم الملتهب دائمًا، إنما يشعر بالجسم المعتدل إلى جانبه باردًا.

وليت شعري: إلى متى تظل الرغبة في الطاعة، طاقة نارية تلاحق العصاة بالويل والثبور؟"

وكان شيخنا الغزالي رحمه الله يكره أصحاب القلوب الغليظة، ويواجههم بهذا البغض في صراحة شديدة فيقول: "أكره أصحاب القلوب الغلظة الشرسة، لو كان أحدهم تاجرًا واحتجت إلى سلعة عنده، ما ذهبت إلى دكانه، ولو كان موظفًا ولي عنده مصلحة ما ذهبت إلى ديوانه، لكن البلية العظمي أن يكون إمام صلاة أو خطيب جمعة أو مشتغلا بالدعوة، أنه يكون فتنة متحركة متجددة يصعب فيها العزاء".

وكان يقول: "إذا لم يكن الدين خلقًا دمسًا وسيرة جذابة، وروحًا سمحة، وجوارًا رحبًا، ووجهًا طليقًا، فما يكون؟".

ودخلت عليه يوماً فتاة لم يُعجبه زيها أول ما رآها، غير أنه لمح في عينيها حزناً وحيرة يستدعيان الرفق بها، وجلست إليه تبثه شكواها وهمومها عساها تجد لديه الخلاص! لقد كانت فتاة عربية تلقت تعليمها في فرنسا، استمع إليها طويلاً فوجدها لا تعرف عن الإسلام شيئاً، فشرع الشيخ رحمه الله يشرح لها حقائقه، ويرد الشبهات العالقة بذهنها، ويجيب عما يعن لها من أسئلة، ويفند أمامها أكاذيب المبشرين والمستشرقين حتى شفى بعض غلتها..

[1]- جيل النصر المنشود- د.يوسف القرضاوي

ولم يفته في حديثه إليها أن يصف الحضارة الحديثة، بأنها تعرض المرأة لحماً يغري العيون الجائعة، وأنها لا تعرف ما في جو الأسرة من عفاف وجمال وسكينة، واستأذنت الفتاة على أمل العودة مرة أخرى، فأذن لها الشيخ، وبعد خروجها دخل عليه شاب تعلوه سيماء التدين وهو يقول غاضباً: ما الذي جاء بهذه الخبيثة إلى هنا؟ فأجاب الشيخ: الطبيب يستقبل المرضى قبل الأصحاء، ذلك عمله!

قال: طبعاً نصحتها بالحجاب!

قال الشيخ: الأمر أكبر من ذلك، هناك المهاد الذي لابد منه، هناك الإيمان بالله واليوم الآخر والسمع والطاعة لما تنزل به الوحي في الكتاب والسنة، والأركان التي لا يوجد الإسلام إلا بها في مجالات العبادات والأخلاق. فقاطعه الشاب قائلاً: ذلك كله لا يمنع أمرها بالحجاب. فقال الشيخ في هدوء: ما يسرني أن تجيء الفتاة في ملابس راهبة وفؤادها خال من الله الواحد، وحياتها لا تعرف الركوع ولا السجود، إنني علمتها الأسس التي تجعلها من تلقاء نفسها تؤثر الاحتشام على التبرج.

فحاول الشاب مقاطعة الشيخ قائلاً له بصرامة: أنا لا أحسن جر الإسلام من ذيله كما تفعلون، إنني أشد القواعد وأبدأ البناء بعدئذ، وأبلغ ما أريد بالحكمة، وبعد مرور أسبوعين جاءت الفتاة في ملابس أفضل، وكانت تُغطي رأسها بخمار خفيف، واستأنفت أسئلتها، واستأنف الشيخ شروحه لها وقال: لماذا لا تذهبين إلى أقرب مسجد من بيتكم؟ فردت الفتاة بقولها: إنها تكره رجال الدين، وما تحب سماعهم!

فسألها الشيخ لماذا؟

فقالت له: لأنهم قساة القلوب غلاظ الأكباد.! ويعاملونها بصلف واحتكار.!

وهنا يتذكر الشيخ الغزالي رحمه الله (هند امرأة أبي سفيان) التي نالت من الإسلام ما نالت، إنها كانت لا تعرف رسول الله، فلما عرفته واقتربت منه وآمنت به قالت له هذه الكلمات: "يارسول الله : والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إِلَيَّ أن يذلوا من أهل خبائك.! وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك"

ثم يقول الشيخ: إن نبع المودة الدافق من قلب الرسول الكريم، بدل القلوب من حال إلى حال، فهل يتعلم الدعاة ذلك من نبيهم فيؤلفوا بدلاً من أن يفرقوا، ويبشروا بدلاً من أن ينفروا؟

دعاة اليأس

تقرر شريعتنا أنه مهما اقترف الإنسان من الذنوب والآثام، وجاء بأعظم المعاصي والخطايا، فإن الله تعالى يقبل توبته إن تاب، ويدعوه للإنابة ويُبشره بغفران الذنوب، ومحو السيئات، يقول تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)[1]

قال الحسن البصري رحمه الله: "انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التّوبة والمغفرة"[2]

ومن هنا ذم الله تعالى اليأس، وحذر من القنوط، مهما كان الإسراف على النفس، ومهما كان حجم هذا الذنب.!

قال تعالى: (إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[3]

إنه اليأس الذي يُبغضه الله تعالى، وقد تكون أنت أيها الداعية سببًا فيه! حينما تتهم العصاة بغلظة، وتنهرهم بقسوة، فتدفعهم هذه الخصومة المنكرة، ليتمادوا في غيهم معاندين مكابرين، وقد كانوا يرجون منك كلمة حانية، ونصيحة رقيقة هادية، ومؤازرة علي طريق لم تعنهم أنفسهم على السير فيه.

لماذا نغفل دائمًا أن يكون هؤلاء العصاة في يوم من الأيام أفضل منا عند الله؟! حينما يفيق أحدهم من غفلته، ويتوب إلى ربه، ويتحول بذل المعصية، من أخشع الخاشعين، وأوجل العارفين، بينما غيره يتعالى منتشيًا بطاعته التي يأكلها عجبه.

– عن أبي هريرة ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: يَقُولُ:" كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول أقصر فوجده يوما على ذنب فقال له أقصر فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً؟ فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد:

[1]- البروج: 10
[2]- تفسير السعدي
[3]- يوسف: 87

أكنت بي عالما أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار"[1]

وعَنْ جُنْدَبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ: (أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك) أَوْ كَمَا قَالَ.[2]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله، فقال له: هل من توبة ؟ ، قال : لا، فقتله فجعل يسأل، فقال له: رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر لهُ)[3]

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا : بلى، قال: "من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر) [4]

وهذا (عمر) رضي الله عنه فرغم ما عرف عنه من شدته في الحق، إلا أنه أيضا كان الرفيق اللين في معاملة العصاة الغافلين، ففي فتح تستر، كان سؤاله عن المرتدين من بني (بكر بن وائل)، وهنا يظهر (عمر) في أبهى ما يظهر فيه الداعية من الرفق بالعصاة، فهو يدعوهم ويرجو هدايتهم، ويذكرهم بغفران الذنوب، قبل أن يذكرهم بشدة العقاب.

فعن (يزيد بن الأصم): أن رجلاً كان ذا بأس وكان يوفد على عمر رضي الله عنه لبأسه وكان من أهل الشام، وأن عمر فقده فسأل عنه فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فدعا كاتبه فقال اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب

1- سنن أبو داوود - حسن
2- صحيح مسلم
3- الصحيحان
4-مرفوع - جامع البيان لابن عبد البر.

شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ثم دعا وأمَّن مَن عنده، ودعوا له أن يقبل الله بقلبه وأن يتوب عليه، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأ ويقول: غافر الذنب.. قد وعدني الله أن يغفر لي، وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني الله عقابه، ذي الطول، والطول، الخير الكثير، لا إله إلا هو إليه المصير، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ (عمر) أمره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه)[1]

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر ﷺ: (حم ، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهَّ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)[2] وقال: (اعمل ولا تيأس)[3]

ألا ما أجهل هذا الداعية الذي يفتن الناس عن دين الله، إنه يأخذهم بالشدة، ويغلظ عليهم، ويقنطهم من رحمة الله، إنه يشتد على العصاة، ويقسو عليهم في وعظه، وقد يجره الغلو ليخرجهم من الجنة إلى النار.! هكذا يقرر مصائر العباد، وكأن العاقبة بيديه، يُدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار.! والحق سبحانه رد رسوله ﷺ حينما دخل على رهط من أصحابه وهم يضحكون، فقَالَ: "لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا " فأتاه جبريل ، فقال : إن الله ، قال لك: لم تقنط عبادي ؟ قال : فرجع إليهم وقال: " سددوا وأبشروا "[4]

"هناك دعاة سوء يحشرون يوم القيامة فتانين؛ لأنهم يؤذون الله ورسوله لسوء تصويرهم للإسلام، وجهلهم لفقه الدعاة، وكأن وظيفتهم الصد عن سبيل الله"[5]

إن دعاة اليأس يجترون الناس للمعاصي جرًا، وحينما ترتكب المعصية، لا يمكن أبدًا أن ينبت في خيالهم شيئاً من معاني التوبة والندم والرجوع إلى الله تعالى، وإنما الذي ينبت ويتوغل في عقولهم، هو ذلك التصور الموهوم من إنكار المنكر، والأخذ على يد الجاني، وإذا كان الحق سبحانه ينهى عن

---

[1]- حلية الأولياء
[2]- غافر: 1-3
[3]- تفسير ابن كثير.
[4]- صحيح ابن حبان
[5]- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل – الشيخ محمد الغزالي.

اليأس، ويدعو للتوبة، فكيف بداعية حصيف أن يجافي هذه الرغبة الإلهية، أو يغيب عنه هذا المعنى الذي يؤهل المخطئ لصفحة جديدة في حياته؟!

إن الرسول ﷺ قاوم كل بذور اليأس، ووقف في وجه كل دعوة للقنوط من رحمة الله، وأقسم بربه أن توبة هذا المذنب، لو وزعت على أهل الأرض لكفتهم أجمعين.!

وأمام هذا الأمل لك أن تتخيل صورة داعية عرف ذنوب العصاة، وكلما مر بأحدهم عبس في وجهه وأعرض عنه، بل ربما لمزه أو غمزه بكلمة أو حركة، حتى يدفع هذا المذنب لا لكي يتوب، وإنما ليرمي نفسه في البحر منتحرًا، أو يلقي بها من فوق قمة جبل شاهق، ليتحمل وزره في النهاية بحُمقه وجهله، وإذا لُمت هذا المؤنب، يبرر حماقته بقوله: إنما فعلت ذلك لأشعره بذنبه، وأُجرعهُ مرارة معصيته، حتى لا يعود لمثلها مرة أخرى، ولكنه للأسف، لم ينصرف عنها فقط، وإنما انصرف عن الحياة برمتها.!

إننا نؤكد بإلحاح، أن الدعوة المجردة من معالم الفقه والوعي والفهم الدقيق لطبائع الناس، تُفسد أكثر مما تصلح! وأن الداعية الذي يسلك القسوة مركبًا، لن يُكتب له القبول، ولن تتمكن دعوته من قلوب المدعوين، ولو أن هذا الداعية على درجة من الوعي، لكان له مع المذنب شأن آخر يقوده للتوبة والإنابة، ويزرع في قلبه الأمل والرجاء، ويفتح له صفحة جديدة من الطاعة والإيمان.

إن الله تعالى غفور رحيم، كما أنه شديد العقاب، ولكن، لا أعلم لماذا يغفل دعاة اليأس عن المعنى الأول، ولا يدركون من صفات ربهم سبحانه إلا المعنى الثاني؟ كثيرٌ من الدعاة لم يتخلصوا من أمراض النفوس بعد، وربما تتسبب الدعوة في إنماء كثير منها.. إنهم جُبلوا على حب التقريع والتوبيخ وتعيير المخطئين، يدفعهم النقص بين الحين والحين، لتذكير المقصرين بسقطاتهم، حتى يُظهروا تميزهم، ويبرزوا تفوقهم، ويتعالون على المجتمع بطاعتهم.

ألم يقرأ دعاة اليأس قول الله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1]

[1]- الزمر : 53

ألم يتفكروا يومًا ما لتوبيخهم من أثر في نفوس الغافلين؟

وإلى هذا المذنب التعيس، الذي تحامل على نفسه وتجرع ألم التقريع والتقنيط، نقول له ما قاله إمام البيان في جدد حياتك: "لا تؤودنك كثرة الخطايا، فلو كانت ركامًا أسود كزبد البحر، ما بالى الله تعالى بالتعفية عنها، إن أنت اتجهت إليه قصداً، وانطلقت إليه ركضًا.. إن الكنود القديم لا يجوز أن يكون عائقاً أمام أوبة صادقة، وتوبة"[1]

فالله تعالى كتب على نفسه الرحمة، وسمى نفسه الرحيم، وفتح لعباده أبواب المغفرة، مهما أثموا وأذنبت جوارحهم، ولنا هنا مع العارفين وقفة تأمل في الآية الكريمة.

والتي وصفت بأنها أرجى آية في القرآن، وذلك لثلاثة أشياء:

1- مناشدة الحق تعالى للمسرفين بقوله (ياعبادي) وهذه بشرى ولطف عظيمين، فرغم ذنوبهم، وإسرافهم في هذه الذنوب، فهم أيضًا عباده، ولم يخرجوا من حيز العبودية.

2- لام الجنس في قوله (الذنوب) فلم يقل الكبائر، بل هي الذنوب بلا تحديد.. أي تشمل الصغائر والكبائر معًا.

3- الآية الكريمة تخاطب الذين أسرفوا، ومن ثم.. فهي بُشرى للذين لم يسرفوا.!

وفي الحديث القدسي قال ﷺ :قال الله تعالى: "يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة"[2]

وفي الصحيحين قالﷺ :"لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه وهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي "

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:(إن لله مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن، والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)[3]

---

[1]- جدد حياتك - الشيخ محمد الغزالي.

[2]- رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

[3]- الصحيحان

ويقول أيضاً:" أذنب رجل ذنباً ، فقال : أي رب أذنبت ذنبا فاغفره لي ، قال ربكم : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، قال : ثم لبث ما شاء الله ثم أذنب ذنبا آخر ، فقال : أي رب أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي ، قال ربكم : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، قال : ثم لبث ما شاء الله فأذنب ذنبا ، فقال : أي رب أذنبت ذنبا فاغفره لي ، قال ربكم : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاءَ"[1]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، قَالَ: قُدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بسبي ، وإذا امرأة من السبي يتحلب ثدياها ، كلما وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها ، فقال رسول الله ﷺ : " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ " قالوا : لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : " والله ، لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها"[2]

دفعة هائلة من النصوص تشع بالأمل، يغفلها أصحاب العُقد، لكنها في الوقت نفسه، تدفع أي يأس في نفوس من أسرفوا على أنفسهم، بل يملأ الكرم الإلهي قلوبهم خجلًا، إن هم يأسوا من رحمة ربهم، فينطلقون مستبشرين مغردين يحدوهم الأمل ويرددون مع القائل قوله:

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك ربي كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفـوك ثم أني مسلم

ناصحون لا مؤنبون

لا يعرف الداعية الحصيف معاني اللوم والتأنيب والتوبيخ والتقريع.. إنها هوايات لا يمارسها الحكماء، ولا يعرفها قاموس الواعين بطبائع النفوس وسجايا البشر، الذين لا يبغضون شيئًا في الدنيا كالنقد والتنقيص، هناك أناس يدمنون التقليب في صفحات الآخرين، والتقصي عن هِنات الماضي،

[1]- المصدر السابق
[2]- المصدر السابق

ويشعرون بنشوة غامرة في تقريع المقصرين، وتأنيب المذنبين، وإذا كان الداعية على هذا المنهج السلبي، فلن تتقدم الدعوة قيد شبر، ولن تنفتح له القلوب مثقال ذرة.

ومن هنا.. كان من الضرورة أن يدرس الداعية غرائز النفوس ورغباتها وميولها، حتى يستطيع أن يتعامل معها بنجاح، إن التأنيب من أشد صور النقد، والنقد أكبر حاجز تصنعه بينك وبين من تدعوه، وأول لبنة تضعها في طريق الإعراض عنك، فالناس يعشقون الإطراء، ويهيمون بمن يمدحهم، ولا يمكن لناقد أن ينال الحظوة في قلوبهم، ولا نَعني بذم النقد والتقريع، أن تصل إلى مرتبة من النفاق، ولكننا نصور لك المعالم الأولى للتأثير فيمن حولك.

يقول (ديل كارنجي):"في تعاملنا مع الناس.. علينا أن ندرك أننا لا نتعامل مع أناس منطقيين، وإنما أناس عاطفيين كلهم تحيز.. يحركهم الغرور والكبرياء"[1]

وإذا بحثنا عن سر نجاح (بنيامين فرانكلين)، وهو من أعظم الساسة الأمريكيين، وسفير أمريكا في فرنسا، فإننا نجده في قوله: "لم أكن أتكلم بسوء عن أي شخص، ولكن أتكلم بكل خير أعرفه عن أي شخص"

أما (أبراهام لينكولن) الرئيس السادس عشر لأمريكا فيقول: "لا تنتقد أحدًا حتى لا ينتقدك". كما يؤكد على النقد الإيجابي فيقول: "الشخص الوحيد الذي يحقّ له أن ينتقد، هو الشخص الذي لديه قلب للمساعدة".

وينقل لنا (كارنجي) في كتابه الشهير (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين؟) تلك الحكاية عن (تشارلز شواب) رئيس شركة الحديد الأمريكي التي يملكها (أندرو كارينجي)، حيث كان (تشارلز) من أوائل الأشخاص في مجال العمل الأمريكي حصولًا على مرتب يربو على المليون دولار سنويًا، وكان رئيس شركة حديد، وكان هناك في الشركة من كان يعرف أكثر منه في تصنيع الحديد.. يعرض (شواب) سبب تفوقه وقدرته التي ميزته عن غيره وجعلته يتقاضى هذا الراتب الكبير على من هم أكفأ منه فيقول: "إنني أعتبر قدرتي على إثارة حماسة الموظفين هي أعظم خصائصي، وإظهار ما لدى الموظف، إنما يكون عبر التقدير والتشجيع، وليس هناك من شيء يقتل طموحات الموظف

[1]- كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين- ديل كارنجي.

مثل النقد من الرؤساء؛ ولذلك فإنني لا أنتقد أحدًا، فأنا أومن بإعطاء الموظفين حافزًا للعمل، ولذلك تجدني توَّاقًا للمدح كارهًا لتصيد الأخطاء، فإذا كان هناك شيء أحبه، فهو أنني صادق في استحساني، وكريم في مدحي".

وحينما رحل (شواب) كتب مالك الشركة على قبره: (هنا يرقد شخص عرف كيف يجمع حوله رجالًا أذكى منه؟)

لقد رفض رسول الله ﷺ أسلوب اللوم والتأنيب، رفض أن يكون الفشل في عمل أو مهمة أو مرحلة، سبيلاً للتعيير والتأنيب والاتهام بالتقصير، الذي يولد الضعف والخور والوهن في العزائم والنفوس، ففي مؤتة أعدَّ خالد خطته العبقرية للانسحاب بذكاء، حتى لا يعرّض جيش المسلمين لمحاولة لا شك خاسرة، إن لم تكن من قبيل الانتحار، ولكنه حينما رجع للمدينة، تلقاه الغلمان وبعض المتحمسين يَرمُونهم بالحصى، ويحثون عليهم التراب، ويعيرونهم بقولهم: يا فرار، وهنا تدخل ﷺ ودافع عنهم، وأعلن رفضه لهذا التقريع الذي يهدم من كبرياء الرجال، فيقول: "لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ، وَلَكِنَّهُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ" لقد كان رسول الله ﷺ طبيبًا يداوي النفوس، قبل أن يكون زعيمًا يحاسب جيشه على التقصير، لقد قام بما تقوم بها (الشئون المعنوية) في الجيوش الحديثة، حينما تعيد تأهيل الجنود، وتعدهم مرة أخرى للنزال، وهو ما تحقق للمسلمين بعد ذلك حينما هزموا كل الطواغيت، وأزالوا العقبات من طريق الإسلام.

وقد يعيب البعض على (عَبْد اللهِ بْن حذافة السهمي) أن قبّل رأس علج، ولكن فقه عمر رضي الله عنه،كان أبصر من الجميع، حينما قام وقبل رأسه، وقال: "أطلق اللهَّ بتلك القبلة ثمانين من المسلمين" هناك فرق هائل بين الناصح والمؤنب، والذين يؤنبون الناس، وهم يتصورون ذلك نصحًاً، فلا يلومون إلا أنفسهم.

أما نحن فلا يسعنا إلا أن نقدم لهم كلامًا عظيماً لابن القيم رحمه الله وهو يصور فيه الفرق بين الأمرين فيقول: "إنَّ النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه، فهو إحسانٌ محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه، فيتلطَّف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم

المشفق، والمريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكلِّ ممكن، فهذا هو شأن الناصح.

وأما المؤنِّب، فهو رجل قصده التعيير والإهانة، وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًا للذمِّ والإهانة، في صورة ناصح مشفق، وعلامة هذا.. أنَّه لو رأى من يحبه، ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شرٍّ منه؛ لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غلب قال: وأنا ضمنت له العصمة، والإنسان معرض للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك.. "[1]

"والداعية الحق شخصية متميزة، فهو كالمنارة الهادية من بُعد لمن ضل أو حار، وهو كالظل الوارف لمن لفحه حر الشمس والمسير في الهجير، وبالتالي فهو نقطة تجمُّع بالنسبة للمدعوين، ولذا فإنه يحتاج إلى أن يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق"[2]

"فالناس في حاجة إلى كنفٍ رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء"[3]

المعيرون هم الخاسرون

عَنِ ابْنِ عُمَر، قَالَ: أتى النَّبِيّ ﷺ ، بسارق فقطعه، وكان غريبًا لم يكن لَهُ أهل بالمدينة، قطعه فِي شدة البرد، فقام رَجُل يُقال لَهُ: فاتك، فضرب عَلَيْهِ خيمة، وأوقد لَهُ نويرة، فخرج النَّبِيّ ﷺ، فِي بعض الليل، فأبصر النار، فقال: "ما هَذِهِ النار"؟ فقيل: يا رَسُول اللهَّ، المصاب الَّذِي قطعته، كَانَ غريبًا، آواه فاتك وضرب عَلَيْهِ خيمة، وأوقد لَهُ نويرة، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ :"اللهم اغفر لفاتك، كما آوى عبدك هَذَا المصاب"[4]

---

[1]- الروح لابن القيم.
[2]- مقومات الداعية الناجح- د. علي بادحدح.
[3]- في ظلال القرآن - سيد قطب
[4]- أسد الغابة، ط.الشعب.

حينما سأل الرسول ﷺ عن النار، رد عليه الصحابة بقولهم: إنه المصاب، ويؤكد الرسول ﷺ هذا المصطلح حين دعا لفاتك فقال: "كما آوى عبدك المصاب هذا"، ولم يقل المجرم السارق، والمذنب اللص، وكذلك صحابته الكرام، لم ينعتوا الرجل باللصوصية.

ثم تأمل هذه الدعوة بالمغفرة، وممن؟ من رسول الله ﷺ لفاتك، لأنه رحم صاحب المعصية، وأشفق عليه وواساه! فيا من تقسون على العصاة، وعلى من تاب من بلاياه، ألا تريدون أن تشملكم الدعوة بالمغفرة؟! إن كنتم تريدون ذلك، فارحموا الناس ولا تعيروا أحدًا ببليته، فلربما تركت هذه الآثام في نفس صاحبها ألمًا وندمًا يرفعه لمراتب الصديقين، بينما أنتم.. فالله وحده يعلم ما ستره عليكم، فاشكروا نعمة ربكم ولا تكفروا بها.

يقول تعالى: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)[1]

"يبدل الله – تعالى – سيئاتهم حسنات" بأن يمحو – سبحانه – سوابق معاصيهم بفضله وكرمه، ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم"[2]

يقول سيد رحمه الله: "ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة"[3]

وجاء في مدارج السالكين لابن القيم: "وكل معصية عيرت بها أخيك فهي إليك، ويحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها.

وروى الترمذي عن النبي ﷺ :"من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله".

قال أحمد: من ذنب تاب منه..

وروى الترمذي مرفوعًا: "لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك".

أي أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه، وأشد من معصيته؛ لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر،

---

[1]- مريم : 60

[2]- التفسير الوسيط - د. طنطاوي.

[3]- في ظلال القرآن - سيد قطب.

والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك، بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله!"[1]

وفي نهج البلاغة كلام ثمين: "وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة، أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، يكون الشكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه، أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به؟ وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله؟

فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله فيما سواه، مما هو أعظم منه، وأيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير، لجرأته على عيب الناس أكبر، يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه، فليكفف من علم منكم عيب غيره، لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلًا له على معافاته، مما ابتلي به غيره"[2]

لقد ندد العقلاء بالتعيير، لما له من أثر في هدم الإنسان وشيوع اليأس في حياته، فلا ينهض أو يستأنف تجديد إيمانه وصفحته مرة أخرى! قال (أكثم بن صيفي) لبنيه: "يا بني كفوا عن ذكر مساوئ الناس، تصف لكم قلوبهم".

وقال (محمد بن كعب القرظي):"إذا رأيتم الأخ من إخوانكم قد استحوذ عليه الشيطان، فإن استطعتم ألا تكونوا أعواناً للشيطان عليه فافعلوا وسلوا ربكم العفو والعافية ولا تعيروه وادعوه وآنسوه وجالسوه، وإذا رأيتم الأخ من إخوانكم يعمل بشيء في طاعة الله عز وجل، فإن استطعتم أن تكونوا خيراً منه فافعلوا، فقد أمرتم أن تسابقوا في الخيرات"[3]

كما رصع المزني كلاما يكتب بالذهب حين قال:

"احملوا إخوانكم على ما كان فيهم كما تحبوا أن يحملوكم على ما كان فيكم، فليس كل من رأيت منه سقطة أو زلة وقع من عينيك، فأنت أولى من يرى ذاك منه، فإن كان فيك صلاة فلا تعجبن بها فلعل

[1]- مدارج السالكين لابن القيم.
[2]- نهج البلاغة شرح الإمام محمد عبده.
[3]- التوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني.

صاحب المعصفرة والشعر السكني ينال من النبيذ أحياناً أوفى للعهد منك، وإن كان فيك وفاء للعهد فلا تعجبن به، فلعل الذي تمقته في بعض حالاته أوصل للرحم منك، وإن كان فيك صلة للرحم، فلا تعجبن بها فلعل الذي تمقته في بعض حالاته أكثر صوماً منك، وإذا رأيت من هو أكبر سناً منك، فقل: هذا خير مني، صام وصلى وعبد الله قبلي، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: هو خير مني، أحدث مني سناً وأقل ذنوباً، وإذا رأيت من هو أقل منك مالاً فق: هذا خير مني زويت عنه الدنيا خياراً أو بطراً وأعطيتها لسقائي إلا أن يرحمني ربي، وإذا رأيت الناس أكرموك ورأوا لك حقاً فقل هذا الفضل منهم على، وإذا رأيتهم استخفوا بك فقل هذا بخطيئتي وذنبي، واتخذ أكبر المسلمين لك أبا، وأوسطهم لك أخا، وأصغرهم لك ابنا، أيّسُرُّك أن تضرب الطفل الصغير أو تظلم الشيخ الكبير، ولتشغلك ذنوبك عن ذنوب العباد، وليسعك ما أنعم الله به عليك عما أنعم الله به على العباد، ولا تنظروا في ذنوب الناس كالأرباب، وانظروا في ذنوبكم كالعبيد، ولا تعاهدوا لقذاة في عين أخيك وتدع الجذع معترضا في عينك، فوالله ما عدلت"[1]

وهذا داعية ينصح داعية فيقول له:" نصيحتي لنفسي ولكَ: لا تحتقر شخصاً، ولو رأيته يعصي الله بأكبر الكبائر، فأنت لا تدري من سيكون يوم القيامة أقرب إلى الله، أنت أم هو، لا تراقب الناس، ولا تتّبع عثراتهم، ولا تكشف سترهم، ولا تتجسس عليهم"[2]

وقال غيره[3]:"لا تكُثروا من مقارنة أنفسكم مع الآخرين، فالمُقارنة الخاطئة سبب: كفرإبليس،وظلم إخوة يوسف..فكونوا هادئين، وأحسنوا الظن كثيراً، ليسَ خوفًا مَن الناسّ، أو خوفًا من انتهاء العّلاقة بينهـم، ولكن حتى تُكتبون عند الله مِن: (...اَلْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[4]

[1]- المصدر السابق.
[2]-من أقوال الدكتور عائض القرني.
[3]- من أقوال الشيخ سلمان العودة
[4]- آل عمران: 134

إن الواقع شيء، والباطن شيء آخر، وكما أن كثيراً من الطائعين.. لا تغتر بطاعتهم، فكذلك من تراهم من العصاة، قد يكون لهم في الغيب شأن آخر! بل قد يكون المعيوب أفضل عند الله من العائب.!

روي أن رجلًا مر علي قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام. فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى، فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت، والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان -لرجل منه- قم فأدركه وأخبره بما قال، فأدركه رسولهم فأخبره، فأتي الرجل رسول الله ﷺ وحكي له ما قال، وسأله - أي الرسول - أن يدعوه له، فدعاه له وسأله الرسول فقال: قد قلت ذلك.

فقال الرسول ﷺ:"لِمَ تبغضه؟ "فقال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة. قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أخرتها عن وقتها؟ أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال: لا، ثم استطرد: والله ما رأيته يصوم شهرًا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البار والفاجر قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئًا؟ قال: لا والله ما رأيته يعطي سائلًا ولا مسكينًا قط، ولا رأيته ينفق شيئًا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البارُّ والفاجر، قال: فاسأله: هل رآني نقصت منها أو ماكست في طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ:"قم فلعله خير منك"[1]

لماذا لا يسأل الناصح المعنف نفسه بعد أن رأى ذنباً واحداً لأحد المذنبين: هل فتح عينه على كل جوانب حياته ؟ هل أحاط ببصيرته النافذة فرأى كل عناصر الخير في نفس هذا المذنب؟ ربما يكون قد فعل ما أغضبك ولكن من المؤكد أن حياته مليئة بما يسرك.! أو لعله قدم لربه توبة لا تعلم أنت شيئاً عنها، وإذا كان لابد من هجوم منك عليه، فإنه ظلم كبير لأنك تغفل كل أعماله الحسنة التي أتى بها، ويكون حكمك عليه من خلال ذنب واحد يسير أمام أبواب كثيرة من الطاعات، ثم إنه أخوك مهما أذنب وأخطأ، وحذار أيها الداعية أن تنسى هذه الأخوة لأنها الرباط الذي تعيده به إلى ساحة الطائعين الملتزمين، وهي المعنى الواضح للرفق واللين والحب والود، كما تحسب من الغرور

[1]- رواه أحمد في مسنده

الذي يدفعك لنسيان ضعفك كما نسيت ضعفه فظلمته ولتدع الله دوماً أن يعافيك مما ابتلى به غيرك.!

لأن الحمد يُخمد حميتك الطائشة يستفيد منها الشيطان ليضل بها صاحبك.!

المتكبرون على النصيحة

روي أن رجلا قال لـ(عمر) ﷺ في مناظرة بينهما، اتق الله.! فأنكر عليه بعض الحاضرين، وقال للرجل: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟ فقال عمر: دعه فليقلها لي، نِعْم ما قال، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها.. لقد قبلها (عمر) وهو من هو ورعًا وإيمانًا وطاعة ومنصبًا.. فلماذا يأنف منها من هم أقل من عمر؟ إذا نُصح أحدهم هاج وماج، وأرغد وأزبد، وعَلَتهُ حُمرة الغضب، توعد بالويل والثبور وعظائم الأمور، وكأن النصيحة طعنًا في كرامته أو تقليلا من هيبته.

إن عمر ﷺ لم يعلن رضاه وعدم غضبه على نصحه فقط، بل توجه بالدعاء للناصح قائلًا:

"رحم الله امرأ أهدى إليّ عيبوبي"

فهل ندعو لمن نصحونا ونشكرهم كما فعل عمر، أم نهينهم وننكر عليهم؟ أليس هذا الناصح خير ممن يجاريك ويمالئك في باطلك، فلا يهديك ولا يرشدك ولا يعرفك خطأك من صوابك؟، لقد بين خامس الخلفاء أن أفضل الإخوان وأعز الواصلين، من ينصحك، بينما يجعله بعضنا أبغض الناس وأملّهُم، فمما ينسب لـ(عمر بن عبد العزيز) ﷺ :"من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه"..

ولم يكتفِ (عمر بن عبد العزيز) ﷺ عند حد هذا البيان الراقي، وإنما سارع لتحقيق النصيحة بصورة عملية، فقد بلغ من حبه لها مبلغًا عظيمًا يوم أن جعل من غلامه مزاحمًا رقيبًا وملاحظًا عليه، يعد عليه خطواته وسكناته، ويراقب قوله وفعله! لقد قال له:

"إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت كلمة تربأ بي عنها تنزهني عنها- أو فعلاً لا تحبه، فعظني عنده وانهني عنه"[1]

[1]- عيون الأخبار لابن قتيبة: 82/2.

إن السلف جميعًا -رضي الله عنهم- كانوا يرون في النصيحة ما رآه (عمر بن الخطاب) ﷺ. أنها علامة الأخوة الصادقة، والقربى بين المؤمنين، ويعبر عن هذا التابعي الجليل (بلال بن سعد) حينما قال لصاحبه (عبد الرحمن بن زيد):

"بلغني أن المؤمن مرآة أخيه، فهل تستريب من أمري شيئًا"[1]

وأعجب منه (ميمون بن مهران) ذلك الذي كان يعرض نفسه على أصحابه فيقول لهم:

"قولوا ما أكره في وجهي.. لأن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره".

وكان الشافعي ﷺ من الذين يجعلون النصيحة مقياس الود بين الرجل وأخيه فيقول:

"ما نصحت أحدًا فقبل إلا هبته واعتقدت مودته، ولا رد أحد علي نصحي إلا سقط من عيني ورفضته"

وعرف (الحسن البصري) معنى الأخ بأنه:

"من تصيب من عشرته خيرًا، فإن زغت عن الطريق قومك".

ويقول (الحارث المحاسبي):

"واعلم أن من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك، قال عمر -رضي الله عنه-: لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين"[2]

كما أن رد (الحسن) كان مفحمًا عاقلًا لهذا الذي قال له:

"كيف نصنع بأقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟! فقال الحسن: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى يلحقك الخوف"[3]

ومهما كان التوقع بالرفض والإحراج وعدم القبول، فإن التراجع مرفوض والصمت مرفوض..ولا ينبغي لصاحب الدعوة أن يخشى في الحق سلطانًا، أو يُعرض عنه خجلًا وحرجًا، ما دام يستطيع التغيير، فإنه إن فعل، فقد أجرى على نفسه عقوبة وخيمة في الدنيا والآخرة، أخبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال:

---

[1]- الزهد لابن المبارك: 485.

[2]- رسالة المسترشدين - الحارث المحاسبي تحقيق أبو غدة.

[3]- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني.

"ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون، إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا"[1]

إن الآخرة شأنها شأن كثير من الغيبيات في الدين، وإنما يتوعد الرسول ﷺ صاحبها بعقاب في الدنيا:"إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا".

وذلك لأن المنكر المتروك، يعمل عمله في المجتمع المسلم، عمل السرطان في الجسد العليل، فإنهم تركوا المنكر يسري وينمو، وكانوا بهذا الترك سقاته ورعاته حتى اشتد عوده، وانتشرت عنه عدوى المعصية في المجتمع. وعلى جانب آخر.. نرى أناسًا لا يتكبرون على النصيحة فقط، وإنما يرفضونها ويمقتونها ويتصدون للقائم بها، لا لأنهم يبغضونها ويألفون المعصية، وإنما لأن أسلوب الداعية في نهيهم عنها، خرج عن معنى النصيحة إلى الفضيحة، إنه ينصحهم على الملأ، ويتصور أنه أدى واجب النصح كما ينبغي، يُشّهِر بهم ويظهر مالا يرغبون في إظهاره، ويجتهدون في ستره عن أعين الناس.. كما أن أحدًا من الناس لا يحب أن يكون منتقدًا، فالجميع يحب المدح ويهوى الإطراء، وناهيك أن يكون النقد لا للشخص فقط، وإنما أمام الناس، إن هذا الدرس كان أول ما تعلمناه في حياتنا الدعوية، وأكد عليه شيوخنا مرارًا وتكرارًا، وكانوا كثيرًا ما يرددون: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرّض بأحد ولا يخصه بالذكر، وكان يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.؟!

وكان الشافعي ممن سجلوا هذه اللقطة بنظم رائع حين قال:

تعمدني بنصحك في انفرادي ** وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ** من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي ** فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

وقال ابن حزم: "إذا نصحت فانصح سرًا لا جهرًا، وبتعريض لا تصريح".

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

[1]- سنن أبو داوود

"من فعل شيئًا من المنكرات، كالفواحش والخمر والعدوان وغير ذلك، فإنه يجب الإنكار عليه بحسب القدرة، كما قال النبي ﷺ: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".. فإن كان الرجل متسترًا بذلك، وليس معلنًا له، أُنكر عليه سرًا وستر عليه، كما قال النبي ﷺ:"من ستر عبدًا ستره الله في الدنيا والآخرة "على أن لا يتعدى ضرره، والمتعدي لابد من كف عدوانه، وإذا نهاه المرء سرًا فلم ينتهِ.. فعل ما ينكف به من هجر وغيره، إذا كان ذلك أنفع في الدين"[1]

وأما إذا أظهر الرجل المنكرات، وجب الإنكار عليه علانية، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره، ففي يوم من الأيام اقتاد أحد الصحابة رجلًا إلى الرسول ﷺ ليعترف أمامه بالزنا، فقال له ﷺ: هلاّ سترته بثوبك؟

" وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفحشها الزنا وقد نيط بأربعة من العدول يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة وهذا قط لا يتفق، وإن علمه القاضي تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه، فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات، ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ؟"[2]

ولا شك أن فعلك هذا قبل أن يُنسب إلى باب النصيحة، فإنه فضح للأسرار وكشف للعورات، وقد ندد الفضيل رضي الله عنه بالفضّاحين فلا تكن منهم، إذ يقول:

"المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير"[3]

"إن المذنب لا يجهل حاله –وإن كابر فيه– ولذلك فإن النصح أبغض شيء لديه؛ لأنه كشف للعورة التي يحاول سترها، ولهذا قال تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...)[4] وكأنه تعالى يقول لنا: لا تحرجوهم، وارحموهم، لينقادوا لكم"[1]

---

[1]- مجموع فتاوى ابن تيمية، طبعة مجمع الملك فهد.
[2]- الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين – المجلد الثاني ص 182 طبعة دار الفكر العربي بيروت.
[3]- الأمر بالمعروف للخلال.
[4]- النمل :125

ولقد شكا صاحب الشرطة إلى (سليمان بن عبد الملك) جماعة يجتمعون في دار أحدهم فيشربون ويستمعون إلى الغناء ويصخبون، فمال (سليمان) إلى أن يُقيم عليهم حد الشرب، وكان (عمر بن عبد العزيز) حاضرًا فسأل صاحب الشرطة، هل أصبح ذلك البيت ملهىً مفتوحًا بابه لمن أراد أن يدخله؟، فقال صاحب الشرطة: إنما هو حانوت خمر وسفه ظاهر، وعاد عمر يتثبت من صاحب الشرطة، فعلم أنه بيت توصد أبوابه على من فيه وما فيه، وأنه بيت أحد أغنياء دمشق، ويلتقي فيه بأصحاب بعض الليالي، فيسمرون خلف باب مغلق، وأنه مكان خاص له حرمته، وليس مكانًا يباح فيه الدخول لمن أراد اللهو والشراب، فقال عمر بن عبد العزيز: "يا أمير المؤمنين، من وارت البيوت فاتركه"[2]

إن وسيلتنا إلى غرس أعواد دعوتنا، لابد وأن يكون لها من شرف الغاية ما ينأى بها عن التشهير والتنكيل بالعصاة، تسوقنا في ذلك شهوات الاستعلاء والرغبة في كشف المستور، وهي الرزيلة التي لو نمت في دخيلة الإنسان لأضاع عمره كله في تتبع عوارت المسلمين، حتى يلبي رغباته الحمقاء في إحصاء زلاتهم وأعمالهم، ولعله لكي يرضي نزواته يُسخِر من حوله لهذه الغرض الدنيء.

وكما قيل: "في الوقت الذي يعفو الخالق عن عباده ويسترهم، يأبى المخلوق الضعيف إلا التشهير والتذمر".

[1]- كيف ندعو الناس – عبد البديع صقر.

[2]- من مقال للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي. الأهرام 1985/7/10 م.

لا تهدموا دعوتكم

لا تصدموا الناس في دينهم

أكثر الشعوب اليوم مغيبة عن دينها، وبعضها منذ عشرات السنين يُصَوَر لها الإسلام، بأنه رجعية وتخلف، وأن الملتزمين به والداعين إليه، ما هم إلا إرهابيون متسلطون، وهناك من وسائل الإعلام العربية من تكيد للإسلام، ويفعل فيها ما لا يفعله الإعلام الغربي تشويهًا واستهزاءً.

ولا عجب أن خرجت أجيال جاهلة بدينها، لا تعرف عنه شيئًا، ولولا جهود الدعاة والمصلحين، ونضال الصحوة الإسلامية المباركة، لكُنا اليوم في حالة نرتاب معها في كثيرٍ من معالم الإسلام، لنكون كمن طُبع على قلوبهم، فيرددون صباح مساء: بأن الإسلام في المسجد، وبين العبد وربه، وليس له علاقة بالحياة والحكم وقيادة الأمة، فهو لا يعدو إلا أن يكون نمطًا روحيًا يسلكه الإنسان في عبادته، كالنصرانية وغيرها من الديانات الروحية.

وهو إفك مفترى وتزييف لحقائق الدين وثوابته.

عقب موجة (25 يناير) في مصر، خرج من ينادي بتطبيق الشريعة جملة، ولا أعرف كيف لهم أن يغفلوا تلك الغيبوبة التي غرق فيها الناس دهرًا طويلًا، وأنهم أحوج ما يكونون لسنة التدرج، حتى لا تُصيبهم صدمة تمنعهم من قبول الدين جملة، وتصدهم عن هديه، وتخلق في صدورهم عقدةً من أحكامه وتعاليمه؟! إن غالبية الجماهير المسلمة تفتقد التربية الدينية، وفهم مقاصد الشريعة، واستيعاب روح الدين في أحكامه، وربما لا يعي أكثرهم إلا بعض مظاهره، التي لا تُعبر عن حقيقته الجوهرية.

وهنا لابد من مرحلةٍ يعمل فيها العلماء والدعاة والمصلحون، وتنشط فيها المؤسسات الدينية، حتى يهيئوا الناس لتقبل أحكام الشريعة، فيعملون على إصلاح التعليم ومناهجه، والإعلام وبرامجه، ويطورون لغة الخطاب والتواصل، ويدعون المؤسسات الإسلامية الكبرى أن تقوم بدورها، وأن تعود هيبتها ورسالتها، كالأزهر الشريف الذي غُيِّب من الساحة، إن التدرج ضرورة ولا يغفل أهميته إلى ضعيف البصيرة ضئيل الحكمة، والذين يتعجلون سيادة الإسلام دون أن يكتمل تصوره وفهمه والاستيعاب والاستعداد له، يضرون به أكثر مما يُمكِّنون له، وحينما أوصى الرسول ﷺ معاذًا وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما في رحلتيهما لليمن قال:

"يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا"[1]

ويعلق الإمام النووي بقوله:

"وفيه تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي، كلهم يتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلًا قليلًا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالبًا التزايد منها، ومتى عسرت عليه أوشك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها"[2]

ويذكر الشاطبي في الموافقات:

"كان نزول القرآن نجومًا في عشرين سنة، ووردت الأحكام التكليفية فيها شيئًا فشيئًا ولم تنزل دفعة واحدة، وذلك لئلا تنفر عنها النفوس دفعة واحدة".

"والشريعة الإسلامية لم تكتمل إلا بالتدريج، فالمواريث شرعت سنة 3 هـ أي بعد ستة عشر عامًا من بدأ الدعوة، ونظام الأسرة قد اكتمل سنة 7 هـ أي عبر عشرين عاماً من بدء الدعوة، والقوانين الجنائية اكتملت سنة 8 هـ أي عبر واحد وعشرين عاماً من عمر الدعوة، وتشريع الخمر بدأ بالذم، ثم التحذير، ثم التحريم القاطع سنة 8 هـ أي في العام الواحد والعشرين من عمر الدعوة، وتحريم الربا قد جاء سنة 9 هـ أي بعد قيام النظام الإسلامي البديل، وأزيلت بقاياه في حجة الوداع سنة10 هـ.

وكذلك كان الحال" التدرج" في المرحلة المدنية التي استغرقت عشر سنوات، فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل " التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام.

فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع، والتطبيق للتشريع، تطور للتغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، وللواقع الذي لا بد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة"[3]

---

[1]- صحيح مسلم

[2]- شرح النووي على مسلم

[3]- من مقال سنة التدرج في الإصلاح د. محمد عمارة جريدة الأهرام عدد 45719 تاريخ 8 فبراير 2012م.

وحينما أوحى الله تعالى لنبيه ﷺ أن يبلغ هذا الدين، هل أمره بالتبليغ مرة واحدة، وهنا يكون قد أدى ما عليه، أم أنه تدرج معه حتى يهيئه لأمر هذه الرسالة؟ لقد أمره أن يقرأ ثم لينذر عشيرته الأقربين، ثم من حوله من العرب، ثم العرب جميعًا، ثم يوجه خطابه للعالم كله في تدرج ملموس.. وفي الجهاد.. ظل المسلمون خمس عشرة سنة بدون قتال، ولم يكن متاحًا لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، فالله تعالى يدعوهم للصبر والتحمل مهما كثر البلاء واشتد الأذى، ثم أذن لهم بعد ذلك في القتال، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة.. وفي هذا يقول ابن القيم في زاد المعاد:

"كان محرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين".

"وفي مواجهة المتعجلين الذين يظنون أن استكمال إسلامية المجتمعات الإسلامية إنما يتم دفعة واحدة، دونما حساب لتهيئة هذه المجتمعات، ودونما تكوين لآليات هذا الإصلاح في مواجهة هؤلاء المتعجلين، ذوي الإخلاص والنيات الحسنة.. يقول العلامة (المودودي):

"إن الإنجليز قد صرفوا قرنًا كاملاً في تبديل نظامنا القانوني، بدَّلوا نظام حياتنا أولا شيئًا فشيئًا، واعدوا رجالًا يتفكرون ولا يعملون إلا حسب نظرياتهم وأفكارهم، وعملوا عملاً متواصلاً علي تغيير أذهان الناس وأخلاقهم ونظامهم الاقتصادي، لقد وضعوا قوانينهم مكان القوانين القديمة، وغيروا نظام البلاد الاجتماعي، ونحن إذا كنا نريد إقامة الدولة الإسلامية، فلابد أن نتنبه للقاعدة الفطرية التي لا تقبل التغيير، وهي أنه لا يحدث الانقلاب في الحياة الاجتماعية إلا بالتدريج، فكل انقلاب فوري متطرف يكون بددًا، وإن الذين يظنون أن جميع القوانين القائمة ستلغي دفعة واحدة، وينفذ مكانها القانون الإسلامي فجأة بمجرد إعلان تغيير الحكومة، هم لا بصر لهم بالمسائل العملية، وما إحداث الانقلاب عندهم في النظام الاجتماعي إلا كلعبة الأطفال!، أو هم يتمنون أن يحصدوا زرعهم بعد غرسه علي الفور"[1]

وليت الأمر يقتصر على قلة الإدراك والبصر بضرورة التدرج وأهميته! وإنما ينطلق رافضوه، فيتهمون كل من يطالبهم به بالتقصير والتفريط، والميوعة في الدين، ورفض الشريعة، ويتوعدونه بعقاب الله ولعنته.. بل يضعونه على قائمة الأعداء المنبوذين.!

[1]- المصدر السابق

لقد تحولت الرذائل في حياة العصاة إلى طبائع يصعب استئصالها، ومعنى ذلك..أن التغيير لن يأتي بين عشيةٍ وضحاها، ولا طريق غير التدرج خطوة خطوة، حتى تتهيأ النفوس، وتستعد للتحرر من أوحال المعصية والدخول في دوحة الطاعة.

وهذا ما ذكره (عمر بن عبد العزيز) ﷺ حينما قال له ولده:

"يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك ، قال : " يا بني ، إني إنما أروض الناس رياضة الصعب ، إني أريد أن أحيي الأمر من العدل ، فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فينفروا من هذه ، ويسكنوا لهذه "، وفي رواية: "لا تعجل يا بني؛ فإن الله قد ذمَّ الخمر في القرآن مرتين، وحَرَّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحقَّ على الناس جملةً، فيدفعوه جملةً، ويكون من هذا فتنة"[1]

إن عبد الملك أراد من أبيه أن يقيم ميزان الشرع بما له من قوة الحكم والسلطان، ولكن عمر الحصيف بيَّن له أن خطة الإصلاح لا تفرض بالقوة، أو تأتي مرة واحدة، وإنما يتمكن الإصلاح من قلوب الناس بالتدرج، الذي يقتضينا أن نطرح الأمر أولاً على عقولهم وقلوبهم بإقناع ورفق، حتى يتم القبول والإذعان.

إن الأصوات التي يعلو نداءها بتحكيم الإسلام وتطبيق الشريعة جملة واحدة وسط هذا التجهيل، لتضع المشروع الإسلامي في محنة، وتُعرضه لحرج كبير.. إن أشد ما نفتقده اليوم، ليست حماستنا للإسلام وشريعته، أو إيماننا القوي بنجابتها وصلاحيتها، وإنما تتمثل علتنا الحقيقية في أزمة الفهم، الذي حرم منه كثير من أبناء الصحوة الإسلامية، حتى شبت أجيال تهوى العنف ولا تتحسب للعواقب، ولا تؤمن بالظروف، ولا تعترف بالواقع، ولا تقر بمقتضى الحال، لتستفحل الأزمات، وينوء كاهل الدعوة بمزيد من المشكلات.

وكما قيل: "إن الجسم الذي أصابه السقم والمرض من الجوع وسوء ما يتناوله من طعام، إذا عُرضت عليه مائدة مليئة بأشهى الطعام، فإنه لن يستطيع أن يتناولها جملة واحدة، بل لقمة لقمة، ولن يستعيد عافيته إلا بعد أن يتناوله مرة بعد مرة، وكذلك من الصعب على الإنسان أن يقبل التغيير الكامل

[1]- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- للخلاّل

والواسع في حياته جملة واحدة، ولكن دائمًا يكون التغيير والإصلاح متدرجا ومرحليا، فهذه طبيعة بشرية لاشك فيها، والإسلام ليس غريبا ولا مصادمًا للفطرة البشرية".

بعض الباحثين لا يسلمون بالتدرج، ويعيبون على الداعين إليه، ورأيهم: أن تطبيق الشريعة لا يُعارض تربية المجتمع وتأهيله، بل إن إقامتها يُسهم في هذه التربية.. وإلا فما قيمة التشريعات إذا لم تُساهم في رقي المجتمعات ، وبقيت محنطة حتى يقوم المجتمع المؤهل، وفي ضوء أية تربية وشريعة يقوم هذا التأهيل ، حتى يصلح لتقبل الشريعة، ثم نطلب منها أن تتسلم ذلك المجتمع الذي أصبح جاهزاً.؟ ، وحينما أوقف عمر ﷺ حد السرقة في عام الرمادة، فإن هذا العدول هو أيضاً من الشريعة، وليس تعطيلاً لها.

وهم إن كانوا يرون ذلك، فليعلموا أن التدرج أيضاً من الشريعة، وليس تعطيلاً لها، ووسائل التربية والرقي التي يسألون عنها، هي كذلك من الشريعة، والتي ستؤهل الناس لاستيعاب كامل الأحكام من الحدود وغيره، ولا أعرف كيف لفتى صغير أن ندفع به لمرحلة الجامعة، قبل أن يمر على مراحل التعليم التي تسبقها.؟ إننا نريد تمكين الدين من قلوب الناس وعقولهم، لا أن نفرضه عليهم مكرهين.

لا تهدموا دعوتكم بالعنف

الفارق بين المتدين والمتشدد شاسع وكبير، فالأول يتمسك بتعاليم دينه، ويظل محبًا لمجتمعه ومتناغمًا معه، بينما يكره المتشدد محيطه ويُبغض مجتمعه ويتلذذ بإيذائه وتصيد أخطائه.

وفي القصة التي ذكرتها من قبل، والتي كان التحدي فيها شديدًا بين الشمس والرياح على صاحب المعطف، قالت الرياح: أنا أجبره ليخلع معطفه، وقبلت الشمس هذا التحدي، واختبأت وراء غمامة، وهنا زمجرت الرياح، وراحت تجول وتصول، وكلما ازداد العصف، ازداد الرجل تمسكًا بمعطفه، وشد أطرافه إليه، فلما يئست، سلمت بإخفاقها.. وهنا بزغت الشمس، وابتسمت في دعة ورفق، وتدنت بأشعتها المُلهبة رويدًا رويدًا، فما لبث الرجل أن خلع معطفه، وحينئذ قالت الشمس:

إن للرفق واللين قوة تفوق قوة الغضب والعنف، والقصة نرى فيها أثر الحكمة، وقوة الرفق واللين، كما تؤكد في ذات المقام، خسارة الدعوة، لو سار حاملوها بالعنف والشدة.

انظر للخوارج وهم يعطونك التجربة العملية على الفناء المحتم لدعاة العنف؟

"لقد استخدموا العنف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعملوا ذلك في معاملاتهم، وجرهم ذلك إلى القتال وعاد عليهم بالويل، فخاضوا حروبًا ومعارك طوال العهد الأموي، وفي صدر الدولة العباسية، حتى تسبب العنف في إبادتهم والقضاء عليهم، وهذا ما جره عليهم استخدامهم للعنف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسلوكهم هذا المسلك المشين الذي أدى بهم إلى الفوضى والاضطراب، وإثارة الفتن والقلاقل، وهذا مالا يقره عقل ولا يرتضيه دين"[1]

ومن المواقف التطبيقية ما فعله (صلة بن أشيم) رحمه الله حين "مر رجل قد أسبل ثيابه يسحبها ويجرّها على الأرض، فأخذ الناس يسبّونه ويُغلظون له في القول، فساءه ذلك، وأراد أن يريهم درسًا عمليًا في الإنكار برفق ولين فقال لهم: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي إنّ لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عيني [أي أُقِر عينك بطاعتك واتباع أمرك]، فرفع إزاره، فقال: (صلة) لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم"[2]

إن للرفق واللين سحرًا غالبًا في النفوس، وقد يبهرك أن كان سببًا في إسلام (شورفسكي) فهل تعرف من هو وما حكايته؟

"في فلسطين المحتلة، حدث الزلزال المروع، إن أجهزة الإعلام الصهيونية تفرد مساحات واسعة للحديث عن (ميخائيل شورفسكي) الذي أعلن إسلامه وتسمى بـ(محمد مهدي)، كما أقنع زوجته أيضًا بإشهار إسلامها، وهي يهودية تعيش في روسيا، كان (شورفسكي) يعيش في مستعمرة (كريات أربع) القريبة من الخليل، والتي اشتهرت بالمتعصبين الذين يعيشون فيها وعلى رأسهم (باروخ جولد شتاين)، الذي ارتكب مذبحة الحرم الإبراهيمي الشهيرة!!، وكان (شورفسكي)

[1]- ضحى الإسلام لأحمد أمين ج3 بتصرف مكتبة النهضة الإسلامية.
[2]- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقديسي، ص137.

صديقًا لهذا القاتل المجرم، كما كان معروفًا بمعاملته السيئة للفلسطينيين، حتى إنه كان يبصق عليهم إذا التقى بهم صدفة في الطريق، وذات يوم، اضطرته الظروف لإصلاح سيارته عند فلسطيني، الذي تصرف معه بأدب عال رغم تطاوله عليه، وهو ما دفعه إلى إعادة النظر في معاملته للعرب، وبدأ - بمساعدة هذا الفلسطيني- في قراءة القرآن، وكانت المفاجأة أن أعلن إسلامه في النهاية"[1]

من كان يتوقع أن يتفجر قلب هذا الطاغية بكل هذا الحب وهذه الهداية، والرغبة الملحة في قراءة القرآن واعتناق الإسلام؟! وكيف يكون الحال لو أن الفلسطيني كلح وعبس في وجهه سُخطًا على يهوديته، ومعاملته السيئة للفلسطينيين؟ إن النتيجة ساعتها لن تكون إلا مزيدًا من الغليان والعدوان، لكن الرفق أطفأ بقطراته الهادئة لهيب الكره والعداء.

"إن الإخلاص للدعوة وإن بلغ درجة التشبع، لا يبرر القسوة في التعامل مع الآخرين، ولا ينهض شافعًا لأناس يسوقون الناس إلى الجنة بالعصا.. أو يجرونهم إليها بالحبال.. إن الإسلام ينتشر في بقاع الدنيا بقوته الذاتية، وحجته القوية، وبرهانه الساطع، له من الجاذبية ما يقنع أعتا الجبارين بالدخول فيه، بلا صراع، لقد أسملت قرية إنجليزية بأكملها، وبلغ اقتناعها بالإسلام حدًا دعاها إلى تخطيط القرية من جديد، لتكون طبق مدينة رسول الله ﷺ، واستطاع عالم سوداني أن يُدخل في الإسلام ألفين من الأمريكيين في قلب نيويورك، وقديمًا أسلم سحرة فرعون وهم أكثر من عشرة آلاف، عن طريق كلمة طيبة، من قبل موسى عليه السلام، إن الحماس الذي يتجاهل طبيعة الإنسان، قد يحقق نجاحًا في بعض المواقع.. ولكنه ليس النجاح المأمول الذي يحسم القضايا، ويقف بها في مكانها الصحيح، إننا بالقوة قد نكسر رجل أعداء الإسلام.. ولكن التجربة تقول: إن كسر رجل واحدة من أرجل الحريش[2] لا يعني هزيمتها، ولسوف تعتمد على بقية أرجلها الأخرى، لتكسب الجولة وهذا الجذب يحتاج إلى صبر الدعاة وجهدهم، يتسلحون فيه بالبيان، لا بالسنان، بالحكمة والروية، لا بالقوة العسكرية.

[1]- صحيفة آفاق عربية عدد (701) تاريخ 24مارس 2005م.
[2]- الحريش: حشرة لها أرجل كثيرة

وقد حاور الشيخ الشعراوي رحمه الله شاباً من المتشددين فقال له: هل تفجير ملهى ليلي في إحدى الدول المسلمة حلال أم حرام؟ فقال: طبعا حلال وقتلهم جائز، فقال الشيخ: لو أنك قتلتهم وهم يعصون الله ما هو مصيرهم قال: النار طبعا.

فقال الشيخ: الشيطان أين يريد أن يأخذهم؟ فقال: إلى النّار طبعا، فقال الشيخ : إذن تشتركون أنتم والشيطان في نفس الهدف، وهو إدخال النّاس إلى النار، وذكر له حديث رسول الله ﷺ لّما مرّت جنازة يهودي أخذ الرسول يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله قال نفس أفلتت منّي إلى النار؟.. لاحظ الفرق بينكم.. كيف تفكّرون، وبين رسول الله الذي يسعى لهداية الناس وإنقاذهم من النار؟!، أنتم في واد وهو والإسلام في واد آخر.!

ونعود لنقول إنها مشكلة التربية، تربية الشيوخ التي يفتقدها كثير من شباب الصحوة حينما ينشأ أغلبهم وشيخه كتابه، لا يعرف عن العلماء إلا مجالستهم والسماع لعلمهم، أما التربية العملية التطبيقية، فهي التي حرم منها أكثر هذا الجيل، ومن هنا قاده فهمه للتطرف الذي يخالف المنهج القويم.

وحينما سئل العلامة الشيخ (محمد ناصر الدين الألباني) في أحد دروسه عن الشباب المتشدد الذي ينتمي للتيار الإسلامي فقال: "إنه آفة العالم الإسلامي اليوم، والأصل في الدعوة أن تكون باللين والموعظة الحسنة، لكن المهم التطبيق، والتطبيق هذا يحتاج إلى مرشد، إلى مربي يربي تحته عشرات من طلاب العلم، وهؤلاء يخرجون من يد هذا المربي مربين لغيرهم، وهكذا تنتشر التربية الإسلامية رويدًا رويدًا بتربية هؤلاء المرشدين لمن حولهم من التلامذة. ويكون الأمر كما قال تعالى: "وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم".

وحينما طلب الشيخ (أحمد الساعاتي) من ولده الأستاذ (حسن البنا) أن يؤلف كُتبًا لأتباعه تكون ذكرًا له، وتذكيرًا لرفاقه من بعده.. قال له: "يا أبت لقد انشغلت بتأليف الرجال".

ورحم الله شيخنا الغزالي حينما رد على من هاجموه واتهموه بالاعتزال، والخروج عن منهج السلف بقوله: "أولئك لم يجدوا شيوخًا يربونهم"

وبعد.. فإن أول ما يزرعه الشيخ في قلب مريده أن ينزع منه علة التطرف والتشدد، ويرشده إلى الطريق الأمثل في دعوة الناس، ذلك الطريق الذي يحمل النصيحة مباشرة إلى القلب والوجدان، لتنصاع النفس لأمر الله ومراده.

كيف نواجه المؤامرة؟

إن الحقد الصليبي تتأجج مراجله بين الحين والحين، كمدًا على الإسلام والمسلمين، ولا يفتأ سفهاؤه في كل عام أن يأتونا بما يجرحنا في مشاعرنا ودیننا ورسولنا، بدايةً من الرسوم المسيئة، ومروراً بدعوى حرق القرآن، وانتهاءً بالفيلم الأمريكي المسيء للإسلام ورسوله، ولا يظن ظان أن هذه الأعمال مجرد تعبير عن آراء، أو فكر يعرضه صاحبه، وإنما هي أعمال مرتبة موجهة ولها أهدافها، وأولها إظهار المسلمين بأنهم همج رعاع إرهابيون دمويون بعيدون عن الحضارة ومعانيها، لا يؤمنون بالحوار وحرية الفكر ، ولا يملكون ردًا غير العنف والمطالبة بقتل وحرق مخالفيهم.!

والحق الذي لا مرية فيه، أن كثيرًا من شبابنا المتحمس منحهم ما يصبون إليه في رد فعله من صورة مغلوطة ومنفرة عن المسلمين ودينهم أمام العالم كله، إن إنكارنا يجب أن يتحلى بالاتزان، حتى تصل الرسالة للغرب ومجتمعاته، فيدركون خطر الحمقى المتشددين الذين يؤججون عليهم كراهية الشعوب المسلمة، ويظهرونها كأمم لا تحترم مشاعر الآخرين ولا توقر عقائدهم؟

كما أننا لا نظلم ديننا استجداءً للغرب وأهله، ألا فليذهب الجميع إلى الجحيم ولا تنتهك حرمة من حرمات الله. ولكن.. قد يكون من الظلم الحقيقي أن نغفل عن أن كثيرًا من الأمل معقودٌ على المد الإسلامي الزاحف في أوروبا والأميركتين؟

ألا يقرؤون عن الأعداد الهائلة، التي تدخل تباعاً في دين الله تعالى عن قناعة وانبهار؟ لماذا نغلق الباب أمام الراغبين في هذا الدين، ونحن نؤكد على دعاوى المغرضين التي تسم الإسلام بالإرهاب لتنتصر دعاوى الحاقدين، وتُرد رغبات الراغبين إلى شكوكهم التي كادت أن تزول؟

حقًا لا يزال الإسلام يعاني من أبنائه قبل أعدائه! ولو أن مظاهر غضبنا كانت عاقلة هادئة مُرَشَدَة، لكان لها أثرها العظيم في نفوس أناس كفروا بميثاق الروح، ولكننا سمحنا للغضب أن يوجه مشاعرنا وعواطفنا، قبل أن يوجهها أهل العلم وفقهائه.

وكم تعجبت من هؤلاء الفتية الذين تأجج غضبهم حول السفارة الأمريكية في مصر، إن أكثرهم لم يُصلِ الفريضة، التي هي آكد في حب الله ورسوله قبل أي ثورة.! إنهم يذكرونني بجحافل الصوفية، التي تخرج محتفلة بميلاد الرسول ﷺ في مسيرات جماعية، يدقون الطبول، ويتراقصون فيها ويتمايلون فرحة وابتهاجًا، يفعلون هذا بينما المآذن تصرخ بالآذان ولا مجيب.!

إن حب الله ورسوله بريء من هذا العبث، أما ديننا، فقد فرطنا فيه قبل أن يفرط عدونا في تقديره، وكم سررت باقتراح أحد المسؤولين الغيورين على دينهم في وزارة الإعلام بإنتاج فيلم (الرحمة المهداة) ليكون ردًا عمليًا حكيمًا، وهذا الأسلوب هو الجدير بالتعبير عن حقيقتنا كمسلمين، نؤمن بالحوار، الذي يرد تشويه الحاقدين، ويُجلي عن الحقائق غُبارها، ولعله يكون على المستوى المطلوب، فيحقق الغاية منه، كما حدث في فيلم الرسالة للمخرج (مصطفى العقاد) الذي استطاع بمشاهدته كما قيل عنه: بأنه أدخل الآلاف في الإسلام ممن شاهدوه ، ليتحول الفيلم إلى نصر مؤزر، وحسرة على من بدؤوا المناجزة.!

وحينما ظهر الفيلم المسيء إلى رسولنا العظيم ﷺ، كنت أود التنديد بالغرب الذي لا يحترم الأديان، ولا يحترم عقول الشعوب وعقائدها، وأصب سخطي على المنظمات اليهودية التي تبرعت لإنتاجه بخمسة ملايين دولار، وأفضح حقيقة العملاء من أقباط المهجر، ولكن حماقة الصبيان، عطّلت حماسنا، وألهتنا عن دورنا في الدفاع.

إن شعورنا بالمسؤولية تجاه الإسلام وانتمائنا إليه، يدفعنا بقوة لاختيار الطريقة المناسبة التي تعكس مدى تفهمنا لهذه المسؤولية، ووعينا بقيمة هذا الانتماء، وحينما يضع الحق تعالى ميثاق الدعوة الذي يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، فإن أي نزوع للعنف غير مقبول أمام ظروف أحوج ما نكون فيها لإبراز الميثاق الحضاري المسالم الذي يعتمد الحوار واللين والحكمة والاتزان، ما أحوجنا اليوم إلى الحكمة والمعرفة الجيدة بتعامل الإسلام مع خصومه، حتى نأسر القلوب بجميل أخلاقنا، وما

أحوج العقل الغربي إلى من يهديه لمعرفة الإسلام بالحوار الهادي الرزين، والأفكار الذكية المبتكرة التي تبعث الرسالة في نفسه بعيدًا عن الشدة والعنف.

طالعتنا صحيفة اليوم السعودية بتاريخ الإثنين 15/ 11/ 1433هـ بنبأ مبتعثة سعودية في نيوزلندا، استطاعت أن توجه مجهودها للعمل العقلاني الحكيم الذي يدافع عن الإسلام ويظهر حقيقته السامية، بأسلوب حضاري وطريقة راقية، لا يجد العقل أمامها إلا أن يذعن ويعلن احترامه للدين المظلوم، الفتاة النابهة رأت في ظل ما تراه من تشويه الإسلام والسب العلني لرسوله وكتابه، أن تبحث عن طريقة توضح بها قيم الإسلام السمحة، التي تُعلي معاني الحق والعدل والإخاء والمساواة، وهي المعاني التي تنادي بها الحضارة الغربية، والفتاة بحكم إقامتها تعرف الرد المناسب الذي يعكس انطباعا إيجابيًا في الوسط الذي تعيش فيه، فتحت عنوان (ضوء من الشرق الأوسط)، أقامت معرضها المصور بمدينة (ويلنغتون)، والذي ضم عشرين صورة للعين البشرية، مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم للتعريف بقيم الإسلام الأخلاقية، التي ينص عليها القرآن في مشهد جمالي رائع، إن الطالبة الذكية شحذها حماسها للإسلام أن تتبنى هذا المشروع، حتى تدفع عن دينها تلك الصورة السلبية التي رسمها له المغرضون، ولم يكن أمام الزوار إلا أن ينبهروا بما رأوا، خصوصًا عند طريقة العرض، وسماع آيات القرآن التي تتلى بصوت خاشع، مع جمال الخط العربي وزخرفته، حتى قال أحد الزوار وهو عميد جامعة (فكتوريا ايان): "من الجميل معرفة ما في داخل كتاب المسلمين المقدس، خاصة بعد أن شوه الإعلام صورتهم تحت الأوضاع الراهنة، ولا أحد يعرف أن الكتاب يدعو للصفح والتهذيب والأخلاق".

وعندي أن مشروعها المثالي.. فاق بكثير غضبة الأشاوس في الرد على الإساءة الرخيصة، حتى وُسم دينهم بالعنف والإرهاب، وبدلًا من أن يغتنموا هذا العدوان الجائر على عقيدتهم ليكسبوا تعاطف العالم، إذا بهم يوائمون بغباءٍ ما أُحيك لهم.

كثير من أبناء الجاليات المسلمة، يؤكدون أن العقل الغربي متفتح ومجتمعاته لديها استعداد كبير لتقبل الإسلام، لو وجدت من يعرض حقيقته بالأسلوب الأمثل، ولكننا ونحن أمام هذه العروض، نعلم جلياً أن العقبة الكبرى في طريق الإسلام تكمن في أبنائه قبل أعدائه.

وأين هذه الفتاة بعملها الراقي من سائق تاكسي مسلم في بلد أجنبي، كان يسير بالركاب في أحد الشوارع، فلما حضر وقت الصلاة، خرج من السيارة وأقام صلاته، وترك الركاب يتميزون من الغيظ وينظرون ساخطين، ولما انتهى، ركب سيارته، وانطلق بكل برود دون أن يلتفت لغضبهم.؟ ولا أعلم كيف ينظر هؤلاء له ولدينه؟! لا شك أن قلوبهم تكتظ بالسخط عليه وعلى مِلته، لقد عطل أوقاتهم وعاملهم بازدراء، وكم كان من السهل أن تتحول هذه المشاعر المحترقة إلى تقدير وإكبار ، لو أنه استأذنهم أو أخبرهم أنه يحترم دينه، وأن هذا الاحترام يفرض عليه أن يقيم الصلاة في موعدها.

وفي عام 1965 أعلن الملاكم الأميركي كاسيوسمار سيلوس اعتناقه للإسلام، وغير اسمه إلى محمد علي كلاي، كان حينها في الثالثة والعشرين وأصبح مشهوراً بعد فوزه على الملاكم الأسطورة سوني ليستون، لم يرق ذلك لزوجته ومدربه ووكيل أعماله وعائلته المسيحية، ولكنه استمر على موقفه، وحينها لم يكن معظم الأمريكان قد سمعوا عن الإسلام، ولكن محمد علي لفت انتباههم لسماحة هذا الدين، ففي السنة التالية نشبت حرب فيتنام فاستدعاه الجيش للخدمة فرفض قائلا: "إن ديني يمنعني من قتل أناس لم يعتدوا علي".. وفي لقاء تلفزيوني قال "أنا مسلم والمسلمون لا يخوضون حروبًا إلا في سبيل الله" وفي مناسبة أخرى قال :"لن أحارب الفيتناميين لأنهم لم يعتدوا علي ولم يخرجوني من داري ولم ينادوني يازنجي" ونتيجة لرفضه تم الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، وسحب منه مجلس الملاكمة كافة ألقابه عام 1967م، غير أن محمد علي خرج من السجن أكثر شعبية، خصوصاً أن الشعب الأميركي أدرك صحة موقفه من حرب فيتنام، ونال بطولة العالم أربع مرات وأصبح الإسلام في أذهان الأمريكان، مرادفا للسلام والتسامح وعدم الاعتداء على الآخرين، كان هذا في ستينيات القرن الماضي حيث ازدهر الإسلام بين الأمريكان السود، وتعرف فيه البيض على نموذج تطبيقي رائع قدمه محمد علي كلاي.

ويلح على خاطرنا ما فعله محمد علي كلاي في الستينات، أمام ما نراه اليوم من دعاة الفتنة والعنف، وما سببوه من سمعة مظلمة للإسلام والمسلمين، أضرت بإخوانهم من سكان تلك البلاد حينما اقترن الإسلام بالقتل والتفجير وجز الرؤوس.! وهو دين الرحمة والتفاهم والإنسانية والعدالة.!

وينقل أحد الكتاب مقولة لسيناتور أميركي سابق يقول فيها: "معظم الأمريكان لا يعرفون شيئا عن الإسلام، ولم يقابلوا يوما أشخاصًا مسلمين، ولكن حين وقعت تفجيرات 2001 أصبح لسان حال الجميع يقول: إن كان هذا هو الإسلام، فلا نريد التعرف عليه، واتخذوا كلهم موقفاً سلبياً تجاه المسلمين"[1]

ميادين الشدة

ماذا لو قامت طائفة من الناس تستخف بالدين، وتهزأ بالدعوة، أو ترتكب محرمًا، وتروج له معلنة بلا حياء؟ أيكون موقف الداعية معهم على غرار مع ما أشرنا من الرفق واللين؟

هناك مواقف تتطلب الشدة والحزم حتى يرتدع أصحابها، وعلى الداعية أن يعالج الأمر بالصورة المناسبة، وفي حياة الأنبياء مع أقوامهم، نراهم قد عنفوهم في بعض الحالات وخاطبوهم بلهجة قاسية، وذلك حينما أسرفوا في ضلالهم وإصرارهم على الشرك.. "إن الدعوة بالرفق واللين هي الصورة الوحيدة للدعوة، وهناك أحوال يُعدلُ فيها إلى الشدة والغلظة، فإذا انتهكت حرمات الله، أو ظهر عناد واستخفاف بالدعوة، ففي تلك الأحوال يُلجا إلى الشدة والقسوة، وغالبًا ما يخضع هذا الأمر لقاعدة المصالح والمفاسد"[2]

قال الحق تعالى على لسان نوح عليه السلام: (وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)[3]

وقال إبراهيم لقومه: (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[1]

---

[1]- صحيفة الرياض السعودية بتاريخ الثلاثاء 2 ربيع الأخر 1437 هـ - 12 يناير 2016م - العدد 17368

[2]- من مقال ليوسف فرحات. الرفق واللين يا دعاة الحق المبين بتصرف.

[3]- هود: 29

وقال لقومه: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)[2]

وقد أمر الله تعالى نبينا ﷺ أن يخاطب أهل الكتاب بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا قال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[3]

و(الذين ظلموا منهم) هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين، ورفضوا تلقي الدعوة، وكالوا للنبي ﷺ والمسلمين من حسدهم وبغضهم لأن الإسلام نسخ شرائعهم، وجعلوا يكيدون للنبي ﷺ وكان منهم المنافقون وهذا كله ظلم واعتداء"

قال الزمخشري: "بالخصلة التي هي أحسن، وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم. والثورة بالأناة، كما قال: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ، (إلا الذين ظلموا) فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة"[4].

ولصاحب الأضواء كلام رائع في توضيح المعنى حيث يقول:

"واعلم أن الدُّعوة إلى الله بطريقين: طريق اللين، وطريق القسوة، أمَّا طريق الُّلين؛ فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإيضاح الأدلَّة في أحسن أسلوب وألطفه، فإن نجحت هذه الطريقة فبها ونعمت، وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعيّنت طريق القسوة بالسيف حتى يعبد الله وحده وتقام حدوده، وتمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[5]..ففيه الإشارة إلى إعمال السيف بعد إقامة الحجة، فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب، والله تعالى قد يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن"[6]

---

[1]- الأنبياء 66-67

[2]- الشعراء :165-166

[3]- العنكبوت - 46

[4]- الكشاف للزمخشري

[5]- الحديد: 25

[6]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلاّمة: محمد الأمين الشنقيطي ج - 1 / ص - 464.

وفي الاحتجاج على المنافقين والحوار الكلامي معهم، أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ باستخدام الغلظة والخشونة حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: "أمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافين باللسان وأذهب عنهم الرفق"[2] وجاء في رواية أخرى عنه ﷺ في تفسير الآية: "أمره الله بجهاد الكفار بالقتال، والمنافقين أن يغلظ عليهم بالكلام"[3].

وقال الضحاك في تفسير الآية: "جَاهِدْ الْكُفَّار بِالسَّيْفِ وَاغْلُظْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ بِالْكَلَامِ وَهُوَ مُجَاهَدَتهمْ"[4]

وحول الحكمة من استخدام الغلظة مع المنافقين يقول السيد الإمام محمد رشيد رضا: "هذا وإن معاشرة الرئيس من إمام وملك وأمير لمنافقي قومه، بمثل ما يعاشر به المخلصين منهم، فيه توطين لأنفسهم على النفاق، وحمل لغيرهم على الشقاقِ"[5]

وفي حياة النبي ﷺ شواهد عملية على استخدامه للشدة مع من يستحقها، وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه بابين أحدهما تحت عنوان "باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره"، والثاني "باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله تعالى".

وروى البخاري "لما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: "أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ.

فأرسل نبي الله ﷺ ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا وأني جئتكم بحق فأسلموا".

---

[1]- التحريم: 9

[2]- تفسيري الطبري و البغوي.

[3]- تفسيري الطبري وزاد المسير.

[4]- تفسير الطبري.

[5]- تفسير المنار 551/10.

قالوا: ما نعلمه. قال: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم ، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ ، قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم، قال: أفرأيتم إن أسلم؟،قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم، قال: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج، فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق" فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ"وفي حديثه مع اليهود ترى النبي ﷺ يستخدم الشدة في موضعين: أولهما حين قال: "يا معشر اليهود، ويلكم"، والثانية "فأخرجهم رسول الله"، وذلك بسبب عنادهم وكبرهم على الحق.

وعلى جانب آخر نرى النبي ﷺ يهدد المنافقين المتخلفين عن الصلاة، فقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ :"ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم، ثم آمر رجلاً يؤم الناس، ثم آخذ شعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد".

ويأتي هذا التهديد الثائر، بسبب عنادهم وإصرارهم على التخلف عن صلاة الجماعة، بعدما تم إشعارهم مسبقًا بضرورة الحضور، قال صاحب الفتح: "وفي السياق إشعار بأنه تقدم من النَّبِيّ زجرهم عن التخلف عن الصلاة بالقول، حتى استحقوا التهديد بالفعل"[1]

وعن سلمة بن الأكوع؛ أن أباه حدثه؛ أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله. فقال: "كل بيمينك "قال: لا أستطيع، قال: "لا استطعت" ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه"[2]اختلف في أمر الرجل، أمسلم هو أم منافق، والشاهد أن النبي ﷺ دعا واشتد على من أعرض عن أمره مستكبرًا.

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺقال: "قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ، فقال: أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة".. قال العيني معلقًا على الحديث:" فيه جواز الغضب لما ينكر من أمور الدين"[3]

---

[1]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
[2]- صحيح مسلم، كتاب الأشربة 2021، 1599/3.
[3]- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني 107/2.

ويبدو أن هذا الغضب مما سبق من نهيه ﷺ عن الإطالة ومراعاة أحوال الناس وظروفهم.

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجلٍ، فنزعهُ فطرحهُ، وقال: يعمدُ أحدكم إلى جمرةٍ من نارٍ فيجعلها في يدهّ، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ :"خذ خاتمك؛ انتفع به، قال: "لا والله، لا آخذهُ أبدًا وقد طرحه رسول الله"ﷺ، لم تكن الشدة مع هذا الرجل المؤمن إلا استبعادًا من لبسه شيئًا يكون سبب جمرة من نار جهنم في يده يوم القيامة.

و عن جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله بنسخة من التوارة، فقال: "يارسول الله هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟! فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، فقال رسول الله ﷺ:"والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني"[1]

صحابة على الدرب

الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا على نهج النبي ﷺ يلجؤون للعنف والشدة إذا انتهكت حرمات الله، أو استخف بأمر من أمور الدين، فقد روى البخاري، عن ابن أبي يعلى قال: كان حذيفة بالمدائن فاستسقى، فأتاه دهقان بقدح فضة، فرماه به، ثم قال: إني لم أرمِهِ إلا أني نهيته فلم ينتهِ، وإن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال: "هي لهم في الدنيا، و لكم في الآخرة" [2]

إن الدهقان ألجأ حذيفة رضي الله عنه لهذه الدرجة من الغضب، حينما أصر على استخدام قدح الفضة، فلم يكن بد من استخدام الشدة والتعامل بالقوة حتى يرتدع.

[1]- رواه الدرامي
[2] - متفق عليه.

وروى الدارمي في سننه عن أبي المخارق قال: ذكر لي عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال فلان: ما أرى بهذا بأسا يدا بيد، فقال عبادة: "أقول: قال النبي ﷺ وتقول لا أرى به بأسًا، والله لا يظلني وإياك سقف أبدا".

هكذا قاطع الرجل لتهاونه واستخفافه بالأمر النبوي الكريم.

وروى مسلم قالﷺ:"لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها " قال: فقال بلال بن عبدالله: "والله لنمنعهن"، قال: فأقبل عليه عبدالله فسبه سبًا شديدًا، ما سمعته سبه مثله قط، وقال: "أخبرك عن رسول الله ﷺوتقول: "والله لنمنعهن".

وفي رواية: "فزَبَره"[1] وفي رواية أخرى: "فضربه في صدره".

وهذا الغضب العارم من ابن عمر، والذي جعله يفعل من صنوف القسوة مالم يره عليه سالما من قبل، إنما كان لما رأى من إصرار ولده على رأيه المخالف لقول الرسول الكريم ﷺ.

ويقول الإمام النووي رحمه الله معلقًا على الحديث:

"وفيه تعزير المعترض على السنة والمعارض لها برأيه"[2]

وكان ﷺ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، قد ولى (أسامة بن زيد) على الجيش وهو فيما دون العشرين، فلما هم الصدِّيق ﷺ لينفذ هذا البعث، اقترح بعض الأنصار تنحية أسامة ونقل الاقتراح على لسان (عمر بن الخطاب) ﷺ وهو الاقتراح الذي قابله الصديق برفض عاصف وغضب شديد، وهنا يصور لنا (الطبري) ذلك المشهد بأحداثه، حيث ذكر أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر رضي الله عنهما:" إن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلًا أقدم سنًا من أسامة، فوثب الصديق ﷺ وكان جالسًا، فأخذ بلحية عمر ﷺ فقال له:"ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله"[3]

---

[1]-"زَبَره"أي نَهَره (شرح النووي162/4).

[2]- شرح النووي على صحيح مسلم .

[3]- تاريخ الطبري 226/3 .

وما أروع الصديقة بنت الصديق في غضبتها للعفة والتحشم، روى الإمام مالك عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه أنها قالت: "دخلت حفصة بنت عبد الرحمن على عائشة وعليها خمار رقيق، فشقته عائشة وكستها خمارًا كثيفًا".

إنها شقته ولم تنزعه عنها أو تأمرها بانتزاعه، ليكون هذا الفعل العنيف أبلغ في الإنكار، وألفت لنظر الفتاة ألا يقع منها ذلك مرة أخرى.

أما التابعون – رضوان الله عليهم–، فكانوا كالصحابة غضبًا لدين الله وغيرة على حرماته، وكانوا لا يتورعون أن يشتدوا في الدعوة على من يستهين بأمر من أمور الدين.

فقد روى ابن ماجة عن (سعيد بن جبير) عن عبد الله بن مغفل ﷺ أنه كان جالسًا إلى جنبه ابن أخ له، فخذف فنهاه وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنها، فقال: إنها لا تصيد صيدًا ولا تنكي عدوًا وإنها تكسر السن وتفقأ العين، قال: فعاد ابن أخيه فخذف فقال : أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنها ثم عدت تخذف، لا أكلمك أبدًا".

وفي رواية الدرامي قال: "وما يكون هذه؟"، فقال سعيد: "ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ ثم تهاون به، لا أكلمك أبدا"

وهو جانب من الدعوة بالشدة في الوقت الذي يتخطى فيه المدعو حدوده ويعدو طوره.

ويروي الدرامي كذلك عن قتادة قال: حدث ابن سيرين رجلًا بحديث عن النبي ﷺ فقال رجل: "قال فلان: كذا وكذا"، فقال ابن سيرين" أحدثك عن النبي ﷺ وتقول: "قال فلان وفلان: كذا وكذا، لا أكلمك أبدًا".

كما ذكر علماؤنا الكرام في تراثهم، بعض من يُستخدم معهم العنف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما بينه الإمام الجليل أحمد بن حنبل، حين قال: "والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلاً مبايناً معلناً بالفسق فيجب عليك نهيه وإعلانه لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له"[1]

[1]- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال

وحينما سأله الفضل بن زياد بقوله: "لنا جار يجيء بالقدر فيوضع على النار وينبذ فيها"، أجابه الإمام بقوله: "انهوه" .قلت: "لا ينتهي"، قال: "اغلظ.. أو يرضى لنفسه أن يقال: "فاسق"[1]

ويقول الغزالي في إحيائه: "وذلك يعدل إليه (التعنيف بالقول الغليظ الخشن) عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح".

وحينما علق ابن حجر على قصة الأعرابي الذي بال في المسجد قال:

"وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن منه عنادًا"[2]

أما إذا كان منه ذلك العناد فإنه لا يقابل بالرفق.

حتى لا تتسع الدائرة

وفي إطار هذا الجواز، لابد للداعية من بُعد النظر في تقييمه للمواقف، فإذا كان استخدام الشدة جائزًا في بعض الأحيان، ومع بعض الأشخاص كما أوردنا، فإنه في كثير من الأوقات قد ينتج عنه مفسدة أعظم!، فإذا تأكد للداعية حدوث هذه المفسدة، كان عليه أن يتعامل برشد وحكمة حتى لا تتسع الدائرة، وهذا ما فعله ﷺ، حينما منع (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه من قتل (عبدالله بن أبي أغفل)..

روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله قال: "كنا في غزاة، فكسع[3] رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: "دعوها فإنها منتنة". فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ : دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه".

يقول النووي: "وفيه ترك بعض الأمور المختارة والصبر على بعض المفاسد، خوفًا من أن تترتب عليه مفسدة أعظم منه"[4]

---

[1]- نفس المصدر.
[2]- فتح الباري 355/1.
[3]- (فكسع):هو ضرب الدبر باليد.
[4]- شرح النووي على صحيح مسلم 139/16.

"والنبي ﷺ لم يأذن بقتل ابن أبي، حتى لا يكون قتله ذريعة لنفور الناس من الإسلام، فيقول بعضهم لبعض: ما يؤمنكم إذا دخلتم في دينه أن يقتلكم كما قتل صاحبه عبد الله بن أبي"[1]

ويقول أبو عبد الله التلمساني[2]: (من يؤدي إنكاره إلى منكر أعظم منه، مثل أن ينهي عن شرب الخمر فيؤدي نهيه عن ذلك إلى قتل النفس، فهذا أيضًا يحرم في حقه (الإنكار)"[3]

ويقول ابن تيمية رحمه الله :"إذا تزاحمت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورًا به، بل يكون محرمًا إذا كانت مفسدته أكثر"[4]

ويقول: "ومن هذا الباب ترك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله، من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة المنكر بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه"[5]

إن من أهم ضوابط وشروط إنكار المنكر، ألاّ يؤدي إنكاره على منكر، إلى حدوث منكر أكبر منه، وقد قرر الشيخ الإمام (محمد بن عبد الوهاب) رحمه الله هذه القاعدة الأساسية في حِسبته، فقال في رسالته التي أرسلها إلى أهل سدير:

"يذكر العلماء أنَّ إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق، لم يجز إنكاره، فالله الله في العمل بما ذكرت لكم، والتفقه فيه؛ فإنَّكم إن لم تفعلوا، صار إنكاركم مضرة على الدين"

وقال في الرسالة نفسها معاتبًا من يخالف هذه القاعدة:

"إن بعض أهل الدين ينكر منكرًا وهو مصيب، لكن يُخطئ في تغليظ الأمر إلى شيء يوجب الفرقة بين الإخوان".

وهذه القاعدة في فقه إنكار المنكر والقاضية بعدم مشروعية الإنكار، إذ ترتب عليه حدوث منكر أعظم منه مستمدة من القاعدة الأصولية المعروفة: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

---

[1]- عمدة القارئ بتصرف 89/16.
[2]- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (تـ 871 هـ -1467).
[3]- تحفة الناظر وغنية الذاكر
[4]- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية.
[5]- المرجع السابق.

ويقول العز بن عبد السلام: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد، فعلنا ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى فيهما لقوله سبحانه وتعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم)[التغابن]، وإن تعذر الدرء والتحصيل، فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوت المصلحة قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ..)[1] حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما.. وإذا كانت المصلحة أعظم من المفسدة حصلنا المصلحة مع التزام المفسدة"[2]

ويقول ابن القيم رحمه الله في ضوء هذه القاعدة:

"إنَّ النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض على الله ورسوله، فإنَّه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام، عزم على تغيير البيت وردِّه إلى قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه، كما وجد سواء، فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله. الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه، فالدرجتان الأوليتان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة"[3]

ثم بحمد الله وتوفيقه

[1]- البقرة:219

[2]- قواعد الأحكام – العز بن عبد السلام (136/1).

[3]- إعلام الموقعين، الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق بشير عيون، طبع ونشر مكتبة دار البيان بدمشق، الطبعة الأولى، 1421 هـ.

فهرست المحتويات

1. مقدمة..... 4

الإسلام دين الرفق..... 7

2. لا تظلموا الإسلام!..... 8

3. الدعاة في القمة..... 11

4. الدعوة رفق ورحمة..... 15

5. لابد من الصبر 20

6. دعوة تنتصر بالحب..... 25

7. بسمة حانية تأسر القلوب!..... 28

8. أفسحوا الطريق ليعودوا إلى الله..... 35

معركة الداعية..مع من تكون؟..... 40

9. بغض المعصية لا بغض العاصي!..... 41

10. أطفئوا باطلهم بالرفق 45

11. ليست حماسة بل انتكاسة!..... 49

12. كيف عامل الإسلام أعداءه؟ 52

13. الحوار الهادئ في وجه العاصفة..... 58

14. أعينوهم واردعوا الشيطان..... 62

15. لا تهجروا العصاة..... 70

معاول هدم أم دعاة دين!..... 73

16. دعاة يبذرون الكراهية 74

17. الداعية الذي ننشده 77

18. دعاة اليأس..... 81

19. ناصحون لا مؤنبون..... 86

20. المعيرون هم الخاسرون..... 89

21. المتكبرون على النصيحة..... 94

لا تهدموا دعوتكم..... 99

22. لا تصدموا الناس في دينهم..... 100

23. لا تهدموا دعوتكم بالعنف..... 104

24. كيف نواجه المؤامرة؟..... 108

25. ميادين الشدة..... 112

26. صحابة على الدرب..... 116

27. حتى لا تتسع الدائرة..... 119